مظاهر من الحياة الثقافية والاجتماعية في العصر الجاهلي في كتاب المفضليات

د. ماهر أحمد المبيضين برهومة
قسم اللغة العربية في جامعة مؤتة

د. عيسى عودة
قسم اللغة العربية في الجامعة الهاشمية

الملخص بالعربية

هذه دراسة لمظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية عند العرب في كتاب يعد من أهم مصادر الشعر الجاهلي وهو المفضليات، المحتفظ بأجود الشعر، باعتباره ديوان العرب ووثيقة لحياة الناس ولأخبارهم، وتعبيرا عن رؤى الشعراء، وفي كتاب المفضليات تتجسد العلاقات الاجتماعية والقيم والعادات التي تسهم في تشكيل سلوكيات الفرد في ذلك المجتمع، في ضوء استقراء الأشعار الوارد في المفضليات، وتشفّ الدراسة عن أبرز العادات والقيم التي دعت إليها الجاهلية، وأبرز العادات التي استقبحتها ودعت لتركها.

وبعد استجلاء هذه المشاهد الثقافية الاجتماعية اتضحت معالم من الحياة الثقافية والاجتماعية في ضوء ما اختاره المفضل في مفضلياته من أشعار.

Abstract
Aspects of the socio-cultural Life in the Book of Mufadaliyat

The paper studies aspects of the Arab socio-cultural life as portrayed in the book of Mufadaliyat, which was considered one of the most important sources for Jahiliah poetry, which can be considered as one of the best sources, for sellecting most of the socio-cultural aspects of life of that period. In the book of Mufadaliyat, there is avived portrayal of the social relationships and values, which contribute to the formation of the individual behavior in society.

Through a close reading of the Mufadaliyat poetry, the study reveals the positive social customs and values that the Arab cherished, on the one hand, and, on the other, those customs and values that they repelled, Having analyzed these social scenes in the poetry, the researchers gives us vivid picture of what life was like in the jahiliah Age according to Mufadaliyat.

المقدمة

حظي الشعر العربي بمكانة متميزة مرموقة، جعلت منه عنصرا مهما في دراسة البيئة والمجتمع والسلوكيات والأخلاقيات، وقد انكب عليه معظم الباحثين لما يختزله الشعر من رؤى كاشفة لجوانب من المجتمع العربي .

وتروم الدراسة الكشف عن التجليات الثقافية والاجتماعية للعرب في العصر الجاهلي من خلال التوسل بمناهج النظر الاجتماعي، وتطبيقه على المفضليات، لما تنطوي عليه الدراسات الاجتماعية من استبار للمشهد الذي كان يحيا فيه الجاهليون، مما يسهم في تحليل البيئة الاجتماعية وتفسير خصائصها بأسلوب عميق . فالصحراء كانت العلاقة الأولى التي تؤطر مجمل العلاقات وتصنع القيم لا الاجتماعية فحسب، بل والأدبية أيضا، فندرس العصر الجاهلي من خلال كتاب المفضليات، وهذا العالم يقع خارج خبراتنا المباشرة فنتعرف عليه من هذا المنظار الجديد.

سنتناول الدراسة السلوك الاجتماعي وهو يتضمن سلوك الأفراد وأفعالهم ويكوّنها ويصوغها؛ الثقافة والمعتقدات والقواعد والأفكار والعادات والقيم التي تتميز بأنها طريقة حياة المجتمع، فالعصر الجاهلي هو الذي وضع الأساس الذي قام عليه الشعر العربي كله، وهو المرحلة التي تجلت فيها العبقرية العربية الخالصة في حالتها البكر بكل مزاياها وحدودها دون تأثير من عبقرية أخرى.

وقد ربطنا الشعر بأحوال قومه الاجتماعية، وحاولنا استقراء معالم سلوكهم الثقافي والاجتماعي من خلال ما تمخضت عنه قرائحهم الشعرية، على الرغم من أن الشعر ليست غايته في المقام الأول تسجيل ما انطوت عليه حيواتهم في الجاهلية، إلا أنه كان ديوان العرب، ولم يترك الجاهليون وسيلة أوفى من الشعر يضم سلوكهم الثقافي والاجتماعي وغيرها من تشكلات فردية وجماعية نرى فيه صدى تجاربهم المعينة المحددة في مكانهم وزمانهم، وقد درسنا الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي؛ لأنها تتصف بالغنى الخصيب،ولأنها تمثل درجة من درجات ارتقاء الروح من جهة ومرحلة من مراحل التشكل الاجتماعي من جهة أخرى، فضلا عن أن الشعر الجاهلي لا يتصف بشمولية الواقع حسب -أي بشمولية اللحظة الجاهلية-بل يحيط بما هو آصل في الحياة، كما يشمل ثوابت الكيان النفسي للشخصية العربية إلى حد كبير.

وجلَّ ما تبتغيه هذه الدراسة هو تلمُّس جوامع الإنسانية الشاملة على اختلاف الأزمان والعقول والأوضاع، ولأن الشعر- كما يبدو لنا- سجل حي نابض نستقري فيه دقائق الظروف المعيشة التي أنتج فيها، التي خضعت لشتى عوامل البيئة المادية والثقافية، مع الإشارة إلى أن الشاعر لم يقصد التسجيل التاريخي بل لينفس عن وجدانه وعاطفته وكل ما تقع عليه عينه.

وتوزعت الدراسة إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول: العادات والتقاليد التي عكست تجليات هذا المظهر الاجتماعي في ضوء ما اتسمت به الشخصية العربية الجاهلية من قيم وسلوكيات شكّلت خلاصة للتجارب والموقف الاجتماعي في تلك البيئة.

المحور الثاني: العلاقات الأسرية من إطارها الضيق إلى إطارها الرحب، ومن العلاقة الجزئية إلى العلاقة الكلية، فهي تمثل الانتماء الاجتماعي .

المحور الثالث: المعتقدات الجاهلية التي سيطرت على العقلية العربية، وارتبطت بتشكيل أسطوري لدى الشاعر الجاهلي.

وانتهت هذه الدراسة إلى عرض أبرز المظاهر الاجتماعية وتجلياتها في كتاب المفضليات.

منهجية البحث

المفاهيم والمصطلحات

العادات: هي التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع، وهي تكرير الشيء دائما أو غالبا على نهج واحد، ومن شروط هذا العمل الاستمرارية، وتعني العرف الاجتماعي أو طريقة السلوك المشترك بين أعضاء الوسط الاجتماعي أو الفئة الاجتماعية، فالعادة هي ما يفعله البشر طبيعيا إذا ما وضعوا في الظروف المناسبة، وضرورتها الحيوية للمجتمع مرادفة للضرورة الحيوية للغرائز بالنسبة للفرد، فهي تعد جزءاً حيوياً من وجود الوسط الاجتماعي، وتعني طريق اشتغال

نظام من القيم، ويعتبر المجتمع أن الخروج عليها يشكل سابقات تهدد هذا النظام؛ وللدفاع عن هذا النظام يتم بالتأكيد على ممارسة العادات التي تؤمن ديمومة نظام القيم،وإما بمعاقبة المخالف تحت أي شكل من أشكال العقاب. [1]

وعرفها بعض علماء الاجتماع على أنها"سلوك أو نمط سلوكي تعده الجماعة صحيحا وطبيعيا وذلك بسبب مطابقته للتراث الثقافي القائم، وهذه العادة ضرورة اجتماعية[2]

وبعض العادات مفيد ونافع للحياة الاجتماعية والعادات الاجتماعية تؤدي إلى تعزيز وحدة المجتمع وتقوية الروابط بين أفراده والتجانس في تصرفاتهم، وقد تكون هناك عادات ضارة وشاذة تمثل حالات مرضية، ويتم استبدالها بعادات جديدة ؛ لأن الإنسان ابن عوائده، فالعادات متغيرة.

التقاليد: هي طائفة من قواعد السلوك الخاصة بطريقة معينة تنشأ من الرضا والاتفاق الجمعي على إجراءات وأوضاع معينة خاصة بالمجتمع المحدود الذي تنشأ فيه، وتستمد التقاليد قوتها من قوة المجتمع[3]

والتقاليد أشد رسوخا وتماسكا من العادات وأكثر بقاء أمام التغير والتطوير، فالتقليد ثابت وهو نمط سلوكي يتميز عن العادة بأن المجتمع يقبله عموما دون دوافع أخرى عدا التمسك بسنن الأسلاف، وتجتمع التقاليد مع العادات بأنها حاصل الاجتماع الإنساني وليست سببا له وهي حاصل الاشتراك في الحياة الواحدة، وكما أنها حاصل تفاعلهم بعضهم مع بعض لفترة طويلة من الزمن، فهي مكتسبة من خلال تفاعل الجماعة الإنسانية.

الأعراف: هي طائفة من الأفكار والآراء والمعتقدات التي تنشأ لدى الجماعة وتنعكس فيما يزاوله الأفراد من أعمال يلجأون إليه في كثير من مظاهر سلوكهم الجمعي[4]وهو ما يتصل به من العقائد الشعبية وأفكار العامة يعتبر أهم جزء من دستور الأمة غير المكتوب، وقد تصل إلى درجة القواعد القانونية، ويرتبط بالقول أو الناحية العقيدية والعقلية.

وتشترك العادات والأعراف بأنها متغيرة تبعا لتطور البيئة والحياة، ويستبدل الإنسان العادات بعادات جديدة تتسق مع الزمن والمكان تقدم حياته.

وتعد كل سلوك متكرر يكتسب اجتماعيا، يتعلم اجتماعها ويمارس اجتماعيا، ويتوارث اجتماعيا[5]

الدين والمعتقدات: وتشمل تفسيرات الإنسان للظواهر الكونية المحيطة به، سواء أكانت ظواهر طبيعية أم بشرية، فالدين عند المجتمعات البدائية على سبيل المثال عبارة عن أنماط السلوك المتعلقة بعلاقات الإنسان بالقوى المجهولة وانساق المعتقدات والطقوس المرتبطة بتقديس هذه القوى. [6]

وهو جملة العقائد والتصورات عن الخالق والمخلوقات وكيفية صدورها عن الخالق، فهو يرتكز على عقائد محددة تنتقل من السلف إلى الخلف، فالدين منظور إليه بوصفه ظاهرة اجتماعية، وعلاقته بالمجتمع وتأثيره فيه وتأثره أيضا، كما أنه حاجة اجتماعية تبغي الأمان والطمأنينة .

---

(1) ج.كول:النظرية الاجتماعية، ت: عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1988م، ص34، وعاطف عطية: المجتمع الدين والتقاليد، منشورات جروس برس، لبنان، ط1، 1992م، ص25.

(2) فاروق العادلي:علم الاجتماع العام، التكامل لإنتاج المواد الثقافية(د.ط)1981 ، ص111.

(3) فاروق العادلي: علم الاجتماع العام، ص114.

(4) المصدر نفسه، ص113.

(5) فهمي الغزوي وآخرون: المدخل إلى علم الاجتماع، دار الشروق، ط1، 1992، ص182.

(6) المصدر السابق والصفحة نفسها..

القيم الإنسانية: القيمة تشكل المرغوب، والرغبة لا تنتهي عند موضوع كما تنتهي الحاجة، بل إنها تحيل على أفكار، بل على مُثل عليا وهي مما يقبل الاستبدال وهي تقبل التحول بعضها إلى بعض[1]، بيد أن القيمة تبقى اختيار الإنسان، وهو وحده الفاعل القادر على إخراج القيمة، فكما أنها تدل على شواهد جزئية على تحقق مثل أخلاقي أعلى في الثقافة وفي المجتمع وطبيعة يصنعها الإنسان[2]

وقد عرفها فولسومJ.V.Folsom على أنها نمط أو موقف أو جانب من السلوك الإنساني أو مجتمع أو ثقافة أو بيئة طبيعية،أو العلاقات المتبادلة التي تمارس من شخص أو أكثر كما لو كانت غاية في حد ذاتها، إنها شيء يحاول الناس حمايته والاستزداة منه، والحصول عليه ويشعرون بالسعادة، ظاهريا عندما ينجحون في ذلك[3]

وهي اتصال قوي وحتمي بموضوعات وقيم أو معايير أو أشخاص ينظر إليهم باعتبارهم وسيلة لإرضاء حاجات الكائن كما عرفها مالينوفسكيMalinowski [4]والقيمة الاجتماعية هي أي مدلول له محتوى من السهل الوصول إليه بالنسبة لأعضاء الجماعة وله معنى ليصبح من أجله موضوعا للنشاط، فالقيم الاجتماعية هي القيم المرغوب بها.

ومن خلال دراستنا للمفضليات بدا لنا أن للعرب قيما عديدة نحو؛ قيم الجود والعطاء، وقيم الشجاعة، وقيم البذل والشعور مع الآخرين، وقيم الوفاء. وبعد التغير الذي حصل على المجتمع الجاهلي ظهرت قيم جديدة، مما قد يشعر المرء بانفصام لدى الانتقال من قيمة إلى أخرى، ولكن القيم بوجه الدقة قد تتعايش لأنها ليست نظاما واحدا دون أن يطرد أحدها .

وقد ترسخت هذه القيم لأنها قيم تشمل الأبعاد المادية والمعنوية، وتجسد الإنسان بكل ما يحمل؛ لأنها تطبعه وتسهم في تشكيل سلوكه من خلال دوائر الوجود الجمالي والأخلاقي والديني، فالذات الإنسانية هي التي ترسخ القيم والمعتقدات وهي الفاعل الذي تنشأ من خلاله القيم، وتغيرها الذات واستبدالها بغيرها يكون وفقا للتطورات والظروف. وحدة التحليل :

تتغيا هذه دراسة السلوك الإنساني والمواقف والاتجاهات والقيم الماثلة في الحياة الثقافية والاجتماعية في كتاب المفضليات، وقد توسَّلت الدراسة منهج تحليل المضمون لتركيزه على العبارات والكلمات، التي تمثل الحياة الاجتماعية، من خلال الأشعار الجاهلية التي تضمنها كتاب المفضليات للإطلال على ما تستكنّه حياتهم في هذه الحقبة، كما تناول هذا المنهج دراسة المحيط الاجتماعي، الظروف الزمانية والمكانية التي تؤثر في القيم، كاستبدال قيم بقيم جديدة أو صراع القيم مع غيرها تبعا للظرف والمستجدات والتطورات التي تطرأ على المجتمع، وبين أن مجموعة القيم وأنماط السلوك وصور النظم وأشكال التنظيمات الاجتماعية إنما تعبر عن نفسها عن طريق التواصل والتفاعل الاجتماعيين، وهذه الأمور ليست بالثابتة بل هي متغيرة يشكلها الإنسان ضمن الزمان والمكان، وهذا ما أسفر عنه منهج تحليل المضمون في دراسة المظاهر الاجتماعية في كتاب المفضليات للمجتمع الجاهلي.

المظاهر الاجتماعية في المفضليات

المحور الأول: القيم الإنسانية:

---

(1) انظر جون رزفبر: فلسفة القيم، ت: عادل العوّا، منشورات عويدات، لبنان، ط1، 2001، ص11-ص15.
(2) المصدر السابق، ص14 .
(3) محمد بيومي: علم اجتماع القيم،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،(د.ط،د.ت)149.
(4) المصدر السابق والصفحة نفسها.

هي مجموعة من القيم والسلوكيات السائدة في الحياة العربية ، وهي تمثل سلوكيات إيجابية وسلبية.

القسم الأول: القيم الإيجابية :

1.الكرم: وهو من الخصال الحميدة ومن الدروس التي لقنتها الطبيعة للإنسان العربي، فمهما كان فقيراً فعليه تقديم ما عنده للضيف؛ إنقاذا له من قحط البادية ومن شحها، وخشية من النقد الاجتماعي الذي قد يلحق المضيف إن قصر في حق ضيفه.

هذه الصفة كانت من أعظم مفاخرهم وأسمى قيمهم، وتعد من الصفات الإنسانية التي يتحلى بها العربي الأصيل، وكما أن الطبيعة الخارجية والبيئة الاجتماعية للمجتمع القبلي فرضت وجود الكرم والضيافة، كما تمتزج هذه الصفة بالفخر، وهي صفة معتبرة في حياة العربي، لذلك نرى هذه الخصلة ترددت كثيرا في المفضليات.

ومن هنا كان الكرم "حلاً جيداً ملائماً لمشاكل سببتها طبيعة الأرض والبيئة الاجتماعية ، والحالة الاقتصادية ، لقد كان هذا الحل في المجتمع الجاهلي ضرورياً ، لذلك نظر الشعر إلى قيمة الجود بعين الاعتبار والتقدير وأشادوا بها " ...[1]

عاش العرب في الصحراء المقفرة حيث يسود الجدب والقحط في معظم أيام السنة، مما عرضهم إلى فقدان الغذاء، فأدى هذا إلى نشوء شعور من التضامن بينهم، فيقري المرء ضيفه، ويساعد المحتاج، ويطعم الجائع، ويغيث الملهوف، "لذا كان المال في نظرهم وسيلة لا غاية، وسيلة إلى الحياة الشريفة وإلى كسب المحامد"[2]

فالكرم دليل انتماء اجتماعي، وضرورة من ضرورات التعامل في الحياة الاجتماعية، حيث تمتزج الأنا بالجماعة، وتذوب من أجل الآخرين، فيتكرر مشهد الكرم في كتاب المفضليات بإبراز هذه القيمة الأخلاقية، فهذه القيمة يجسدها لنا بشكل معمّق الشعر، ولاغرابة في ذلك فهو ديوان العرب، من ذلك قول ذي الإصبع العَدواني: [3]

إنـي لَعمرُكَ ما بَابِي بذِي غَلَقٍ عَن الصَّديق ولا خَيْرِي بِمَمْنُونِ

فهو يؤكد هذه الصفة وأن بابه لم يغلق يوماً ، دلالة على كرمه وطيب نفسه .

ومن هنا امتدح الشعراء الكرم ، وتغنوا بممدوحيهم بهذه الصفة ، فقال ربيعة بن مقروم: [4]

مَا لم أُلاقِ امْرأً جَـزْلاً مَواهِبُـهُ سَهلَ الفِنَـاءِ رَحيبَ البَاعِ مَحْمودَا
وقد سَمِعـتُ بِقومٍ يُحْمَـدُون فَلم أسمعْ بِمثْلِكَ لا حِـلماً ولا جُـودا
ولا عَفافَـاً ولا صَبْـراً لِنائِبَـةٍ وما أُنبِّئُ عَنـك البَـاطِلَ السِّيدا
لا حِلمُكَ الحِلمُ مَوجودٌ عليه ، ولا يُلْغى عَطاؤُكَ في الأقوامِ مَنْكُـودا
وقد سَبقْتَ بِغَاياتِ الجِيـادِ وقـد أشْبهْتَ آباءكَ الصِّيدَ الصَّنَـادِيدا
هَذا ثَنـائِي بِما أُوليتُ مِن حَسَـنٍ لا زِلْتَ عَوْضُ قَريرَ العَينِ مَحْسودا

فالشاعر في هذه الأبيات يمدح الممدوح، ويصفه بالكرم وكثرة العطايا، فتتضافر خصلة الكرم عند الممدوح بالحِلم، وتمتزج بالفخر .

(1) محمد نعناع: الجود والبخل في الشعر الجاهلي،دار طلاس،دمشق، 1994،ص 22
(2) أحمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ط 3، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص236
(3) المفضل الضبي(المفضل بن محمد بن يعلى الضبي، ت 178هـ) : المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط 6، (د.ت)بيروت،لبنان، ص 160
(4) المصدر نفسه، ص214

كما عبّر العربي عن الاحتفاء بالضيف، ورحب به، ووصف المبالغة بالحفاوة به، إذ قال شبيب بن البرصاء: [1]

وَقَـــدْ عَلِــمتْ أُمُّ الصَّبيِيـــن أنَّـــي إلى الضَّيفِ قوَّامُ السِّناتِ خَرُوجُ
وأنـــي لَـأُغلِي الّلحـــمَ نِـيئاً وإنــَّني لَمِمَّن يُهينُ اللّحمَ وهو نَضِيجُ
إذا المُرضِــعُ العَوجَـاءُ بالّليلِ عـَزَّها عَلَى ثَـدْيهَا ذُو وَدْعَتَـيْنِ لَـهُوجُ
إذا مَا ابتغَى الأضيَافُ مَنْ يَبذُلُ القِرَى قَرتْ لي مِقْلاتُ الشِّتاءِ خَدُوجُ

فيصف الشاعر نفسه بأنه مقدام في إكرام الضيف، ويتضح ذلك من صيغة المبالغة (قوّام)؛لأنه يبذل وسعه لضيافة ضيوف الليل، فإذا كان نائماً وأتاه أكرمه وأحسن طعامه، حتى في أيام الشتاء فإنه لا يتوانى عن ترك فراشه إذا طرقه الضيوف .

ونلحظ صفة المبالغة في وصفهم كرمهم وجودهم، فهذا مشهد آخر في إكرام الضيف يرسمه عبد يغوث باستعمال صيغة المبالغة(نحَّار) كما يضيف صفات أخرى تتصل بالقدرة على اختراق الصحراء والنفاذ إلى أعماقها البعيدة، حيث لا حياة، ولا أحب إليهم من اللهو والخمر والغناء، فيقول عبد يغوث[2]

وقد كُنتُ نحَّارَ الجَزُورِ ومُعمِلَ الـ مطِيِّ وأمضِي حَيثُ لاحَيَّ مَاضِيا
وأنحــرُ لِلشَّــربِ الكِرامِ مَطَّيتِــي وأصْـدعُ بيـن القَيْنَتين رِدائِيـا

فبعد إكرامه للضيف بالطعام والشراب يكرمه أيضا بسماع الطرب والقيان، فهم يحتفون بالضيف ويقدمون له أفضل ما عندهم، فليس حضوره ثقيلاً عليهم، بل إن الكرم يصبح واجباً على العربي في السنين المجدبة، يصور ذلك المراد بن منقذ إذ يقول :[3]

ِذا كَـــان السِّـــنونَ مُجَلّحـــاتٍ خَـرَجْنَ ومـا عَجِفْنَ مِن السِّنينا
يَســيرُ الضّــيفُ ثــم يَحِـلُّ فيهــا مَحـــلاً مُـــكْرماً حـــتَّى يَبِينــا

ويعقد علقمة بن عبدة مقارنة بين الكرم والبخل ، فيقول:[4]

والجُـــودُ نَافِيــةٌ لِلمَــالِ مَهْلَكَــةٌ والبُخْـلُ بَـاقٍ لأهلِيـه ومَـذْمومُ
والمَــالُ صُــوفُ قَــرارٍ يَلْعبُــون بــهِ عَلَـــى نَقَادتـــهِ وافٍ ومَجْلُـــومُ

(1) المصدر نفسه،ص172.

(2) المفضليات ص158 .
(3) المصدر نفسه، 73.
(4) المصدر نفسه، ص401

فتظهر إهانة المال، وأن العربي لا يحسب للمال قيمة، ويرسم صورة مفارقة ومقارنة ما بين الكريم والبخيل، فهو باق في أهله وبين عشيرته، والجود ليس صفة الأثرياء حسب بل هي قيمة اجتماعية يمارسها المعدمون أيضا.

ويبذل العربي جهده في إكرام ضيفه، وهذا ما صوره الحارث بن حلزة اليشكري في قوله: [1]

وإذا اللّقـــــاحُ تَرَوَّحــــــتْ بعِشـــــيَّةٍ رَتْـكَ النَّعـامِ إلـى كَنيـفِ العَـرْفَجِ
ألفيتَنـــا لِلضَّـــيفِ خَيـــرَ عِمَـــارةٍ إنْ لـم يَكُـنْ لـبنٌ فَعطـفُ المُـدْمَجِ

فالشاعر يمدح قبيلته ونفسه، فهم خير عمارة(القبيلة العظيمة)، فإن لم يكن في إبلنا لبن عطفنا على القداح فضربنا بها للأضياف فنحرنا لهم .

وقد غدا الممدوح في نظر مادحه السيف في حدة كرمه، يقول متمم بن نويرة : [2]

تَـراهُ كَصَـدْرِ السَّـيفِ يَهتَـزُّ للنَّـدى إذا لـم تَجِـدْ عِنـد امـرئ السَّـوْءِ مَطْعَمـــــــــــــــــــا

أما الشاعر السفاح بن بكير اليربوعي فيصف حال ضيفه بعد خروجه من عنده قائلاً: [3]

والمَــــــالِئُ الشِّـــــيزَى لأضْــيَافهِ كأنَّهـــا أعضَــادُ حَــوْضٍ بقَــاعْ
لا يَخــــرجُ الأضــيَافُ مِــنْ بَيتـــهِ إلاّ وهُـــمْ مِنــــهُ رِواءٌ شِبَـــــاعْ

والشاعر ضمرة بن ضمرة النهشلي يستقبل الطارق في الليل بالترحيب والتهليل، فيقول: [4]

وطـارِقِ لَيـلٍ كُنـتُ حَمَّ مَبيتِـهِ إذا قَلَّ فـي الحَـيِّ الجَمِيـعِ الرَّوافِـدُ
وقُلـتُ لَـه :أهـلاً وسَـهلاً ومَرحبـاً وأكرمْتُـهُ حتَّـى غَـدا وهْـوَ حَامِـدُ

هذا الضيف الذي استقبله بالترحيب والتأهيل وأكرمه، خرج من عنده وهو يحمده ويشكره على حسن ضيافته وإكرامه .

وإذا ما اشتد الزمان وكان القحط ولم يطعم أحد صاحبه لضيق العيش، فإن الشاعر عوف بن عطيه يجزل العطاء، ويكرم الضيوف، فيقول: [5]

فَمـــــا زَادَنِـــي الشَّـــيبُ إلاَّ نَــدىً إذا اسْـتَروحَ المُرْضِـعَاتُ القُتَــارَا
أُحَيِّـــي الخَلِيـــلَ وأُعطِـــي الجَزيـــلَ حَيـــاءً وأفعـــلُ فِيـــهِ اليَســـارَا

(1) المفضليات، ص 256.
(2) المصدر نفسه، ص265.
(3) المصدر نفسه، ص323.
(4) المصدر نفسه، ص326.
(5) المفضليات، ص413.

فهو يعبر عن الكرم تعبيراً مجازياً من خلال الندى ، فمهما شاب وهرم، فإنه لن يتوانى عن إكرام الضيف .

ويسبغ الجاهلي سخاءه على الأرامل واليتامى من البائسين والفقراء، وهذا المشهد يتكرر لدى أغلبية الشعراء، يقول متمم بن نويرة: [1]

وَضـيفٍ إذا أرْغَـى طُرُوقـاً بَعيـرَهُ   وعَـانٍ ثـوى فـي القَدِّ حتَّـى تَكَنَّعـا
وأرمْلَـةٍ تَمشِـي بأشِـعثَ مُحْثَـلٍ   كَفَرْخِ الحُبَـارى رَأسُـهُ قـد تَضَـوَّعَا
إذا جَرَّدَ القَومُ القِداحَ وَأُوقِدَتْ   لَهُمْ نَارُ أيْسَارٍ كَفى مَنْ تَضَجَّعَا
إن شَهِدَ الأيْسارَ لم يُلْفَ مَالك   عَلى الفَرْثِ يَحْمِي الَّلحمَ أن يَتَمزَّعَا

كما أن العربي افتخر بكل صفات الكرم، فلم ينسَ الافتخار بطيب زاده، فيقول راشد بن شهاب اليشكري مدافعاً عن زاده الطيب: [2]

وَلَكِـنَّ أنبـاءً أتتنِـي عـن امـرئ   وَما كَان زَادِي بالخَبيثِ كَما زَعمْ
ولكِنَّنـي أقصِـي ثِيـابِي مِـن الخَنـا   وبَعضُهُمُ للغَدرِ فِي ثَوبهِ دَسَمْ

ويصور الشاعر إتلافه المال في المنفعة للجميع، كما يبدو ذلك في حديث الحارث بن حلزة، عن جوده وعطاياه وإسرافه في المال في إكرام ضيوفه قائلاً: [3]

يَحْبُـوكَ بـالزَّغْفِ الفَيُـوضِ علـى   هِمْيَانِهـا، والـدُّهْمِ كـالغَرْسِ
وبالسَّـبِيكِ الصُّفْـرِ يُـضْعِفُها   وبالبَغَايـا البِـيضِ والَلُّعْـسِ
لا يَـرتَجِي لِلمـالِ يُـهْلِكـهُ   سَـعْدُ النُّجـومِ إليـهِ كـالنَّحس
فَلـهُ هُنـالك لا عليـهِ إذا   دَنِعَـتْ أنـوفُ القَـومِ للـتَّعسِ

كما يغدو الكرم صفة حميدة تقول امرأة من بني حنيفة ترثي يزيد بن عبدالله بن عمر الحنفي: [4]

ألا هَلَـكَ امـرؤٌ حَبَّـاسُ مَـالٍ   عَلـى العِـلاَّتِ مِـتْلافٌ مُفِيـدُ

---

(1) المصدر نفسه، ص266- 267.
(2) المصدر نفسه، ص 308.
(3) المفضليات، ص133- 134.
(4) المصدر نفسه، ص273.

فهذا المرء متلاف للمال، لكن هذا الإتلاف مفيد ذو منفعة.

وارتبط بخصلة الكرم رجعُ نباح الكلب، فالضيوف والمحتاجون كانوا يقلدون نباح الكلاب ليستدلوا على خيمة الجواد، ويسمى المحتاج الذي يقلد نباح الكلاب المُستنبح، وقد يذكر مرتبطاً بالظروف المرافقة كالريح أو الليل، [1] ومن هنا قال عمرو بن الأهتم: [2]

ومُسْتنبحٍ بَعَد الهُدوءِ دَعوتُهُ وقَد حَان مِن نَجْمِ الشِّتاءِ خُفُوقُ
يُعالِجُ عِرْنِيناً مِن اللَّيلِ بَاردا تَلُفُّ رياحٌ تَوبَهُ وبُرُوقُ
تَألقَّ في عَينٍ مِن المُزْنِ وَادِقٍ لَهُ هَيدبٌ دَاني السَّحابِ دَفُوقُ

ولم يُقصر الكرم على الضيوف من البشر، بل اشتمل كرم العربي على الحيوان أيضا، فلم يبخل عليه وأكرمه كما يكرم الضيف، فيصور لنا المرقش الأكبر ذئبا بائسا حين أقبل على ضوء ناره، فأكرمه حتى شبع وعاد مسرورا ينفض رأسه: [3]

(1) محمد نعناع: الجود والبخل في الشعر الجاهلي، ص277.
(2) المفضليات، ص126.
(3) المصدر نفسه، ص266.

ولَمـا أضَـأنا النَّـارَ عِنـد شِـوائِنا عَـرَانا عَليهـا أطلـسُ اللَّـوْنِ بـائِسُ
نَبـذتُ إليـهِ حُـزَّةً مِـن شِوائِنـا حَياءً ، ومَا فُحْشِي عَلى مَنْ أُجالِسُ
فَـآضَ بهـا جَـدْلان يَـنْفُضُ رَأسَـهُ كَمـا آبَ بالنَّهـبِ الكَمِـيُّ المُحـالِسُ

ولم يكن الكرم لينحصر في الأغنياء ومن يمتلكون المال ، بل كانت القدرة على تحمل شدة الزمان ومواجهة صعاب الحياة أمرا يدعو إلى الفخر والعظمة، وهي تمثل مشهدا من مشاهد البطولة، فهذا عبدالله بن سلمة يفتخر بأن فناء ثروته من الإبل وجدب الحياة لم يمنعاه من الكرم: (1)

ألا لـم يَـرتُ فـي اللَّزْبـاتِ ذَرْعِـي سُـوَافُ المَـالِ والعَـامُ الجَـدِيبُ

وكانت من أبرز سمات كرم العرب بأن يُبرزوا قدورهم أمام بيوتهم ويوقدوا النيران ليلا، ليهتدي بها الضيوف فيأوون إليهم، يقول حاتم الطائي: (2)

وَأُبـرزُ قِـدْرِي فـي الفَضـاءِ قَلِيلُهـا يُـرى غَيـر مَظْنُـونٍ بـهِ وكَثِيرُهـا
ولَـيس عَلَـى نَـارِي حِجَـابٌ يَكُنُّهـا لِمُسْـتَوبِصٍ لَـيلا ولكـن أنيرُهـا

وهذه النار كانوا يوقدونها كي يهتدي الضالون في الصحراء ليلا، ولكي يأتي التائهون على النيران ضيوفا، وكان العرب يفتخرون بهذه النيران، فكلما كانت أضخم وموضعها أرفع كانت أدعى للفخر وأعظم . يقول حاتم لزوجته: (3)

ولَكِـــن بِهَـــذاكَ اليَفـــاعِ فَأُوقِـــدي بِجَـــزْلٍ إذا أُقِـــدتْ لا بِضَـــرامِ

واشتهرت هذه النار بـ (نار القِرى)في شعر العرب، ونجدها كثيراً في كتاب المفضليات، منها قول عمرو بن الأهتم: (4)

وكُـلُّ كَـرِيمٍ يتَّقِـي الـدَّم بـالقِرى وللخَيْـرِ بَـينَ الصَّـالِحين طَرِيـقُ

فلا يكفي أن يكون الشخص كريما، إذ لابد من صفات تدل على كرمه، نحو: أن يكون طلْق الوجه، طيب النفس، يؤنسهم بحديثه حتى ينضج الطعام ويجهز، فيصف المرقش الأكبر قدر الطعام الذي نُصِب على النار وهو وضيوفه من حوله فيقول: (5)

وقِـدْرٍ تَـرى شُـمْطَ الرِّجـالِ عِيَالَهَـا لهـا قَـيِّمٌ سَـهْلُ الخَلِيقَـةِ آنـسُ
ضَحُوكٌ إذا ما الصَّحبُ لم يَجْتَووا لـه ولا هُو مِضْبَابٌ على الزَّادِ عَابِسُ

وإزاء صورة الكرم الزاهية المشرقة في الحياة العربية التي يقدمها العربي تظهر العاذلة، وهي المرأة التي تلوم بعلها أو أخاها على الإنفاق والكرم، ولأسباب عدة ترتبط بعدم استقرار الحياة في المجتمع العربي آنذاك "أما الزوجة فإنها تحرص بدافع المشاركة في الحياة

---

(1) المفضليات، ص105.
(2) عبد الله مقداد: من مكارم الأخلاق في الشعر الجاهلي، المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية، مج 3، ع 4، 2000م، ص 61.
(3) المرجع نفسه، ص61.
(4)المفضليات، ص 127.
(5) المصدر نفسه، ص226.

وبدافع شخصي من شعورها بأن هذا المال لها ولبنيها ولزوجها ، وأنها تحقق به آرابها ، فهي أشد من الأم حرصاً، وأشد منها لوماً على الإسراف، وهي ترى إسرافاً ما يعتده الزوج أريحية وواجباً محتوماً. (1)

وقد صور هذا اللوم الشاعر معاوية بن مالك بقوله: (2)

قالت سُميةُ :قد غَويتَ ، بِأن رأتْ	حَقّـاً تَنـاوَبَ مَالنَـا ووُفُـودُ
غَـيٌّ لَعمـرُكَ لا أزالُ أعـودُهُ	مَـا دَام مَـالٌ عِنـدنا مَوجُـودُ

ويبادر متمم بن نويرة العاذلات بالشرب ، فيقول: (3)

ولَقـد سَـبقتُ العَـاذِلاتِ بشَـرْبةٍ	رَيَّـا ، ورَاوُوقِـي عَظِـيمٌ مُتْـرَعُ

بل إن المرأة الجاهلية كانت تهدد زوجها بالطلاق والفراق ، إن لم يكف عن الإنفاق والكرم، ومهما قدم الشاعر من أسباب وعلل تقنعها بما يصنعه في ماله إلا أنها تتوعده بالطلاق والمفارقة، وتصب سخطها وغضبها عليه، فهذا المرقش الأصغر يتحدث عن الحالة التي وصل إليها بسبب مبادرة زوجه له بالعصيان والمسارعة بالغضب، فيحاول إقناعها بأنه يرتجي من إنفاقه تحقيق المجد والرفعة، لعل هذا يُهوِّن من غضبها ويجعلها تعدل عن المفارقة، فيصور ذلك قائلاً: (4)

آذنَـتْ جَـارَتِي بوَشْـكِ رَحِيلِـو	بَـاكِراً جَـاهَرتْ بِخَطْـبٍ جَلِيـلِ
أزمَعـتْ بـالفِراق كَمـا رَأتْنِـي	أتلِـفُ المـَالَ لايَـذُمُّ دَخِيلِـي
ارْبعـي ، أنمـا يَريبُـكِ مِنِّـي	إرْثُ مَجـْدٍ وجَـدُّ لُـبٍّ أصِيـلِ
عَجبـاً مـا عَجِبـتُ لِلعَاقِـدِ المَـا	لِ ورَيْـبُ الزَّمـان جـَمُّ الخُبُـولِ
وَيُضِـيعُ الـذي يَصـيرُ إليـهِ	مِـن شَـقاءٍ أو مـُلكِ خُلـْدٍ بَجيـلِ
أجْمِـلِ العَـيشَ إنَّ رزقَـكَ آتٍ	لا يَـردُّ التَّـرقيحُ شَـرْوى فَتِيـلِ

ويرتبط لوم المرأة زوجها على إنفاق المال لخوفها عليه من تعريض نفسه وأهله للهلاك، وذلك في قول المخبل السعدي: (5)

وتَقـولُ عَـاذِلتي ولـيسَ لَهـا	بِغَـدٍ ولا مَـا بَعـدهُ عِلْـمُ
إنَّ الثَّـراءَ هـو الخُلـودُ وإنَّ	المـرءَ يُكـربُ يَومَـهُ العَـدمُ
إنِّـي وَجـدِّكِ مـا تُخَلِّـدُنِي	مِائـةٌ يَطِيـرُ عِفَاؤُهـا ، أُدْمُ

---

(1) أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر، القاهرة، ص. 217.
(2) المفضليات، ص36.
(3) المصدر نفسه، ص52.
(4) المفضليات، ص250- 251، وانظر ماهر المبيضين: الأسرة في الشعر الجاهلي، دراسة موضوعية وفنية، دار البشير، عمان، ط1، 2003،ص53.
(5) المفضليات، ص118.

ولا يملك الشاعر وسيلة لمواجهة موقف الزوجة والدفاع عن نفسه إلا بتقديم مسوغات لما يصنع، في نحو ما نرى في قول عمرو بن الأهتم: [1]

ذَرِينــي فــإنَّ البَخـــلَ يـــا أُمَّ هَيــثمٍ   لِصَـالح أخـلاق الرِّجـالِ سَـرُوقُ
ذَرِينـي وُحطِّـي فـي هَـواي فَـإنَّني   نَوائِـبُ يَغْشَـى رُزْؤُهَـا وحُقُـوقُ

ولا يقتصر لوم المرأة زوجها على الإنفاق والكرم، وإنما تلومه في إعزاز الخيل وتقديم اللبن لها ، وذلك أن العرب كانوا يرعون خيلهم ويؤثرونها أحيانا على أنفسهم وأهليهم ، يقول حاجب بن حبيب الأسدي : [2]

بَاتَـــتْ تَلُـــوم علـــى ثَـــادِقٍ   لِيُشْـرى فقـد جَـدَّ عِصْـيَانها
ألا أن نَجْـــواكَ فـــي ثَـــادِقٍ   سَـــواءٌ علـــيَّ وإعْـــلانُها
وقالـــت :أَغِثْنَـــا بِـــه إنَّنـــي   أرى الخَيـلَ قَـد ثَـابَ أثْمانهـا
فقلـــتُ:ألـــمْ تَعلمِـــي أنـــهُ   كَـــرِيمُ المَكَبَّـــةِ مِبْدَانهـــا

على هذه الصورة يرد الكرم والجود في قصائد المفضليات، وصور اللوم على الإنفاق، فقد رسم كتاب المفضليات لوحات جميلة من الكرم وحسن الضيافة، وسجل لنا حياة العربي الجاهلي وما يشاهدونه على مسرحها الفسيح من صراع على إبراز القيم العليا والأخلاق الإنسانية الذي كان يترعرع الإنسان وينمو فيه .

فالكرم قيمة منبعثة من قيمة الخير فهي الأسمى في الخصال، فالقيمة هنا لا تكاد أن تشير إلينا حتى تختفي لكي تحشد رغبتنا وتستدرج عملنا، فالخير يحفزنا عبر شكل الجميل الذي ينفرد هو بمجازفة الظهور، وهي بالتالي فضيلة تعكس الخير داخل الإنسان، فنراه يجود بماله ونفسه بكل سعادة؛ لأن الإنسان الفاضل سعيد بالضرورة، فالكرم يوضع على لائحة الفضائل وهي مهيمنة على طائفة القيم، وقوامها التضحية وهي قيمة يظهر تأويلها دينيا.

2.حسن الجوار :

تعد هذه القيمة من أهم ما تربى عليه الجاهلي فالصحراء قاسية، وقد أدى هذا إلى ايجاد الملاذ الحقيقي لهم فكان الجوار ولهذه الكلمة معنيان، نوضحهما لأن المفضليات زخرت بهما.

المعنى الأول : أجار ؛ وتدل على عقد بين الطرفين ويكون أمام الملأ، فإذا أعلن ذلك وعلم الناس، صار المجار في ذمة المجير وترتب على المجير أن يكون مسؤولا عن كل ما يقع على المجير وما يصدر عنه، وهذا ما يسمى الأحلاف، وهذه من السنن التي حافظ عليها، واعتدُّوها كالقوانين، فإذا استجار شخص بآخر أو استجارت قبيلة بأخرى اكتسب هذا الجوار صيغة قانونية ووجب على المجير المحافظة على حق الجوار، وإلا نزلت السبة بالمجير وازدراه الناس.

إذاً، يمثل قانون الجوار طبيعة الحياة الجاهلية التي تشتد فيها المعارك والحروب، ويتغلب القوي على الضعيف فتضطر القبيلة إلى طلب جوار قبيلة أكبر منها، لتدافع عنها ولتكون بذلك قوة رادعة تحمي حياتها، وتحافظ على نفسها ومالها بهذا الجوار[3]، وهذه القيمة الإنسانية تهدف إلى

---

(1) المصدر نفسه، ص125- 126.
(2) المفضليات، ص368- 369.
(3) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ومكتبة النهضة، ط3، 1980،ج4، ص607.

غاية سامية تتمثل في طلب الحماية وحفظ النفس الإنسانية، كما أنها تحافظ على دعائم المجتمع الجاهلي، وهذا يؤكد مبدأ الانتماء للقبيلة والمجتمع، فقد قال راشد بن شهاب اليشكري يصور موقف الجاهلي من المستجير وعنايته به: (1)

وَيــأْوِى إِليــهِ المســتَجيرُ مــن الــرَّدى وَيأْوِى إِليه المُسْتعِيضُ من العَدمْ

فجعله مأوى لكل مستجير، وهذا دليل على حسن جواره والمحافظة على جاره، وقد قصد هنا الدخيل. كما افتخر العربي بحفظه لجاره في الجدب والقحط ، فهو كريم حسن في معاملته ، والجار الذي أجرته من أن يظلمه ظالم، والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك، يصف ذلك عوف ابن عطية في قوله: (2)

وَأمنــــعُ جَــــاري مــــن المُجْحِفــــا تِ ، والجَـارُ مُمْتَنِـعٌ حَيـثُ صَـارا

وأوصى الجاهلي ابنه بحماية جاره وحفظه، فيقول عمرو بن الأهتم : (3)

وَجــــاري لا تُهينَنْـــــهُ ، وضَـــــيفِي إذا أَمسَـــــى وراءَ البَيـــتِ كُـــورُ
يَـــؤوبُ إِليـــكَ أَشـــعثَ جَرَّفَتـــهُ عَـــوانٌ لايُنَهنِهُهَـــا الفُتُـــورُ
أَصِــــبْهُ بِالكَرامــــةِ واحْتَفِظــــهُ عَليــكَ ، فــإنَّ مَنطِقــهُ يَسِــيرُ

وسجَّل الجاهلي صورة الحفاظ على الجار، لارتباطه الوثيق بالقبيلة، وقد قام بعضهم بمهمة سياسية ترأب الصدع بين القبائل، وتنهي ما بينهم من أحقاد، فكان الشعراء يفتخرون بمن يُصلح ما بعد الحرب وما وقع من دمار، فيفتخر عمرو بن الأهتم بإصلاحه ما وقع بعد الحرب، فيقول: (4)

---

(1) المفضليات، ص308.
(2) المصدر نفسه، ص413.
(3) المصدر نفسه، ص410.
(4) المصدر نفسه، ص294.

فأصـــلح بَينهـــا فـــي الحَـــربِ مِمَّـــا ألـــمَّ بهـــا أخـــو ثِقَـــةٍ جَســـورُ

أما معاوية بن مالك فيفتخر بحرصه على إصلاح القبيلة بعد الحرب، وبنفسه بما حققه من إصلاح بقصيدة طويلة، منها: [1]

رَأَبْـتُ الصَّـدعَ مِـن تَعـبٍ فَـأُودَى وكَـان الصَّـدعُ لا يَعِـدُ ارْتِئَابـا
فَأمسَـى كَعْبُهـا كَعبـاً وَكانـتْ مـن الشَّـنآن قَـدْ دُعِيـتْ كِعَابـا
حَملـتُ حَمالَـة القُرشِـيِّ عَـنهمْ ولا ظُلْمـاً أرَدْتُ ولا اخْتِلابـا
أُعَـوِّدُ مِثْلَهـا الحُكَمـاءَ بَـعدِي إذا مَـا الحَـقُّ فِـي الأشْـيَاعِ نَابـا
سَأَحْمِلُهـا وتَعقِلُهـا غَنِـيٌّ وَأُورِثُ مَجْـدها أبـدا كِلابـا
فَـإِنْ أحمـدْ بِهـا نَفْسِـي فـإِنِّي أتيـتُ بِهـا غَداتئـذٍ صَـوابا

والجار كذلك يحفظ هذه الحماية ويقدر حسن الجوار فيمتدح مجيريه بصنيعهم وكرمهم ، ومن ذلك ما جاء في قول مقاس العائذي: [2]

ألا أبلِـغْ بَنِـي شَـيبانَ عَنِّـي فَـلا يَـكُ مِـن لِقـائِكُمُ الوَداعـا
بِعـيشٍ صَـالحٍ مـا دُمـتُ فِـيكُم وعَـيشُ المَـرءِ يَهبُطُـهُ لُمَاعَـا
إذا وضَـعَ الهَزاهِـزُ آل قَـومٍ فـزادَ اللهُ آلكُـمُ ارْتِفَاعـا
فَقـد جَـاورتُ أقْوامـاً كَثِيـرا فَلـمْ أرَ مِـثْلكم حَزْمـاً وَبَاعَـا

المعنى الثاني :جاور أي قرب في المكان، وهناك حقوق الجوار بالمحافظة عليه وعلى عرضه والدفاع عته، وقد أوصوا بالجار خيرا، فلا يسيء إلى جاره وعليه أن يغض نظره عن عيوب جاره، وأن يكون يقظا في حفظ حقوق جاره، فالجار الجنب هو القريب منك بالمكان ومن ينزل بقربك وهذا الجار له حرمة نزوله في جواره ومنعته وركونه إلى أمانه وعهده،فحثوا على إكرام الجار ومراعاة حقوقه ، يصور ذلك المثقب العبدي بقوله: [3]

أكـــرِمُ الجَـــارَ وارْعـــى حَقَـــهُ إن عِرفَـان الفتَـى الحـقَّ كَـرَمْ

3.الحكمة :

الحكيم في الآرامية بمعنى عالم،المصيب في رأيه الذي يقضي على شيء بشيء وهو الذي يحسن دقائق الصناعات ويتقنها، والمحكّم هو الشيخ المجرب المنسوب إلى الحكمة، والحكيم :المتقن للأمور وفي هذه دلالة على أنهم كانوا يسمون الحكمة بالتبصر في الأمور، والحكيم هو مؤدب ومرشد وواعظ يعظ الناس ويرشدهم في هذه الحياة. والحكيم في الشرق بمنزلة الفيلسوف عند اليونان، لكن لا نستطيع أن نرادف بين الحكمة والفلسفة، ولا يمكن أن نقول إن مفهوم الحكمة عند الشرق هي الفلسفة بالمعنى اليوناني؛ لأن بين الفيلسوف والحكيم تباينا في أسلوب البحث وفي كيفية التوصل إلى النتائج والمعرفة وفي الغاية المقصودة من كل منهما؛ فالغاية من الحكمة: العبرة

(1) المفضليات، ص412.
(2) المصدر نفسه، ص358.
(3) المصدر نفسه، ص305.

والاتعاظ والأخذ بما جاء فيها من حكم، أي غايات عملية وتأديبية، أما الغاية من الفلسفة فالبحث عن معنى الحكمة وعما يكون وراء الطبيعة من خفايا غير مكتشفة وأسرار.[(1)]

فلم تخل قصائد الجاهليين من الحكمة فهي تعد نتاج التجربة الحياتية للإنسان يبرزها في إطار إنساني عام، ويبين تجربته الحياتية ضمن واقعه، وتكون مرآة صادقة كاشفة عن الخصائص الاجتماعية للمجتمع، وعن مدى علاقة الشاعر الاجتماعية بالناس والمحيط.

وتعبر عن فلسفة الشاعر الأخلاقية والسلوكية والعقائدية، يصب كل تجاربه في هذه القصائد.

وقد تكون الحكمة لونا من ألوان النصيحة لأحد الأقارب أو للناس عامة، فكما قلنا هي خلاصة حياته الفكرية الإبداعية والسلوكية أيضا على نحو ما نرى عند عمرو بن الأهتم:[(2)]

وإنَّ المجـــــدَ أولُــــــهُ وعُــــــورٌ   وَمَــــصْدرُ غِبَّـــهِ كَـــرمٌ وخِيــرُ
وإنَّـــكَ لـــن تَنـــالَ المَجـــدَ حتَّــى   تَجــودَ بمــا يَضَــنُّ بــه الضَّــميرُ

يتكلم عن المجد وأن عاقبته الكرم والخير معا، ويزيد قائلا :

وإنْ جَهــدُوا عَليــكَ فــلا تَهَــبْهُمْ   وَجاهِــدْهُم إذا حَمِــيَ القَتيــرُ
فَــإنْ قصَــدوا لِمــرِّ الحــقِّ فاقْصِــدْ   وإن جَــارُوا فَجُــرْ حتَّــى يَصِيرُوا

هي مكثفة مختزلة ، كما أنها تعد دستور حياة ، يقول ذو الإصبع العدواني:[(3)]

كُــلُّ امْــرىءٍ رَاجِــعٌ يَومــاً لِشِــيَمتهِ   وإن تَخَــالَقَ أخلاقــاً إلــى حِــينِ

ويصف علقمة بن عبدة الجود يقارنه بالبخل وأنه مذموم وباق في أهله مع أن الجود يهلك المال،فيرسم ما خلص إليه:[(4)]

والجُـــودُ نَافِيـــةٌ لِلمَـــالِ مَهلَكـــةٌ   والبُخْــلُ بَــاقٍ لِأهليــهِ وَمَــذْمومُ

وهنا يتكلم عن التطير ولو أنه في حصن فلابد أن يصله الشؤم :

ومَــنْ تَعَّــرضَ لِلغِربــان يَزْجُرُهَــا   عَلــى سَــلامتهِ لابُــدَّ مَشْــؤُومُ
وكُــلَّ حِصْــنٍ وإنْ طَالــتْ سَــلامتُهُ   عَلـــى دَعَائِمــهِ لابُــدَّ مَهْــدُومُ

وقول المثقب العبدي :[(5)]

واعْلَـــمْ أنَّ الــــذَّمَّ نَقــــصٌ لِلفَتــــى   ومَتـــى لا يَتَّـــقِ الـــذَّمَ يــــُذَمْ
إنَّ شَـــر النَّـــاسِ مَـــنْ يَكْشِـــرُ لِـــي   حِـــينَ يَلقَــاني وإن غِبــتُ شَــتَمْ

---

(1)للمزيد انظر جواد علي: المفصل، ط1، 1971، ج 8.
(2) المفضليات، ص410.
(3) المفضليات، ص160.
(4) المصدر نفسه، ص401.
(5) المصدر نفسه، ص293- 294.

ونرى المشهد متجليا في قول علقمة بن عبدة ، وقد أظهر خلاصة تجربته الحياتية حينما سُئِلَ عن النساءِ ، فقال : (1)

فَــإنْ تَســألونِي بِالنِّســاءِ فَــإنَّني بَصــيرٌ بِــأدواءِ النِّســاءِ طَبِيــبُ
إذا شَــابَ رَأسُ المَــرءِ أو قَــلّ مالــهَ فَلَــيسَ لَــهُ مِــن وُدِّهــِنَّ نَصِـيبُ
يُــرِدْنَ ثَــراءَ المَــالِ حَيــثُ عَلِمْنَــهُ وَشَــرْخُ الشَّــبابِ عِنـدَهُنَّ عَجِيـبُ

ولم ينس الجاهلي الحديث عن الجاهل وكيفية التعامل معه، يقول عبد الله بن سلمة مصورا لنا هذا المشهد :(2)

ولَقَــد أصَــاحِبُ صَــاحِباً ذا مَأفَــةٍ بِصِحَابِ مُطَّلِعِ الأذى نِقْرِيسِ
ولَقَــد أزاحِــمُ ذا الشَّــذاةِ بِمَــزْحَمٍ صَـعْبِ البُدَاهـةِ ذِي شَـذاً وشَـرِيسِ
ولَقَــد ألــينُ لِكُــلِّ بَــاغِي نِعْمَــةٍ ولَقد أُجَازِي أهـلَ كُـلِّ حَـوِيسِ
ولَقَــد أُداوِي دَاءَ كُــلِّ مُعَبَّــدٍ بِعَنِّيـةٍ غَلَبـتْ عَلَــى النِّطِّيـسِ

فالشاعر يمتدح نفسه على موقفه من هذا الصاحب الذي يثير الغضب ، لأنه يتعامل معه بالحكمة وحسن التصرف، وهذا دليل ذكاء الجاهلي وحنكته .

وقال المثقب العبدي في الحلم عن الجهال والسفهاء: (3)

وكَــلامٍ سَيِّــئٍ قَــد وُقِــرَتْ أُذُنِــي عَنـهُ وَمـا بِـي مِـن صَـمَمْ
فَتعـزَّيــتُ خَشــاةَ أن يَــرَى جَاهِـلٌ أنــي كَمـا كَـان زَعَـمْ
ولِـبَعضِ الصَّـفْحِ والإعْـراضِ عَـنْ ذِي الخَنـا أبقَـى وإن كَـان ظَلَـمْ

4. الوفاء بالعهود والذمم :

يتحلى العربي في حياته الاجتماعية بالقيم التي تمليها عليه الحياة في الجزيرة العربية، ومن هذه القيم الوفاء بالعهود والذمم، وهي من القيم التي اكتسبها العربي من بيئته، إذ تشمئز نفسه من الخيانة والغدر .

وهي من الصفات التي تربى عليها الجاهلي مثلها مثل الكرم والجود، فالبيئة بقسوتها وصلابتها قد علمتهم الوفاء، مع أن الصحراء مجدبة لا حياة فيها ولا وفاء لها، فقد يظن أن هناك ماءً من شدة العطش وما هو إلا سراب، لكن الجدب الصحراوي علمه الوفاء كما الكرم، فيمتدح الشعراء هذه القيمة الاجتماعية، فالوفاء بالعهود والذمم يغني الصحراء ويزيد القوافل التجارية، من خلال الصدق والأمن والوفاء بالعهد. يقول بشامة بن عمرو: (4)

فَإمــــَّا هَلَكـــتُ ولَـــمْ آتِهـــمْ فَــأَبلِغْ أمِاثِــلَ سَهــمٍ رَسُــولا

---

(1) المصدر نفسه، ص392.
(2) المفضليات، ص107.
(3) المصدر نفسه، ص294.
(4) المصدر نفسه، ص59.

بـــأن قـــوْمُكمْ خُيِّـــروا خَصْلَتيــــ ـــنِ كِلْتَاهُمــا جَعلُــوها عُـدُولا
خِــزْيُ الحَيــاةِ وحَــرْبُ الصَّــدِيقِ وكـُـلٌّ أراهُ طَعَامــاً وَبِـيلا
فَــأن لَــم يَكُــنْ غَيــرُ إحـــدَاهما فَسِيروا إلـى المَوتِ سَيْراً جَمِيلا

ليس فقط الوفاء مع المجتمع بأكمله وإنما نجد الوفاء بالعلاقات الاجتماعية ما بين الأزواج أو الأحبة، يقول الحادرة لسمية: [1]

أسُـمَيَّ ويْحَـكِ هَـلْ سَـمِعتِ بِغَـدْرةٍ رُفْـع اللّـواءِ لَنـا بِهـا فِـي مَجْمَـع
إنَّـــا نَعِــفُّ فَــلا نُرِيـــبُ حَلِيفَنـــا ونَكُـفُّ شُـحَّ نُفُوسِـنا فِـي المَطْمَـع

ونستشف من خلال هذه الأبيات قيمة لا يحبذها المجتمع الجاهلي، وهي صفة الغدر التي تعد من القيم السلبية في المجتمع الجاهلي وفي المجتمع الإنساني أيضا، فمن يتصف بهذه الصفة يرفعون لواء له في سوق عكاظ بأنه يتصف بالغدر ليعرفه الناس .

5.صون العرض بالمال :

عِرض الإنسان شرفه وكرمه وحياته ؛ وهو أشرف ما يذود به الإنسان العربي ، لذا أشاد الشاعر الجاهلي بحفظ العِرض والدفاع عنه، فهدد وتوعَّد من يحاول النيل من العرض" ونجد في الشعر الجاهلي تبجحا بالنفس وإشادة في الدفاع عن العرض، وتهديدا ووعيدا لمن يحاول النيل منه بأي سوء، وهو كلام يحمل حساد المتبجح بنفسه على الرد عليه وعلى الطعن فيما قاله، وبذلك تتولد خصومة قد تطول وتكبر وتؤدي إلى سقوط قتلى كانوا في غنى عنها لولا هذه الحمية الجاهلية القائمة على التفاخر والتباهي والزهو والحمق"[2]، يقول ذو الإصبع العدواني: [3]

إن تَزْعُمـــا أننِــــي كَبِـــرتُ فَلَـــمْ أُلْــفَ بَخِــيلا نِكْسَــا ولا وَرَعَــا
أجْعَـــلُ مَـــالي دُونَ الــدَّنا غَرَضـــاً وَمـــا هِـــي مِلأُمُـــورِ فَأنصـــدَعَا

كذلك ينفق المثقب العبدي ماله لأجل سلامة عرضه، يقول : [4]

يَجْعَـــــلُ الهَـــــنْءَ عَطايـــــا جَمَّـــــةً إنَّ بَعضَ المَالِ فِي العِرضِ أَمَمْ
لا يُبَـــالِي طَيِّــــبُ الـــنَّفسِ بِـــهِ تَلَـفَ المَــالِ إذِ العِــرْضُ سَلِـمْ
أجعَـــلُ المَـــالَ لِعِرضِـــي جُنَّـــةً إنَّ خَيـرَ المَــالِ مَــا أدَّى الذِّمَــمْ

فهذه تشكل قيما اجتماعية تسهم في بلورة المفاهيم الإيجابية في هذا المجتمع العربي، فرضتها طبيعة الحياة العربية التي جعلت الإنسان عرضة للمخاطر، مما كونت لديه سلوكيات طبع عليها وعرف بها تحفظه وتؤمن له حياة مثلى.

6.الشجاعة :

وهي من الصفات التي اتصف بها العربي وأعلى من شانها وافتخر بها وبأهلها ، ونالت من الشعراء قصائد كثيرة، وتلك الصحراء منحتهم الشجاعة، فالطبيعة الجغرافية صعبة المراس فلا

(1) المفضليات، ص45.
(2)جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 4، ص407-408.
(3) المفضليات، ص154.
(4) المفضليات، ص295.

يستطيع أحد الدخول فيها، فهي مجهولة له، لكن من يمتلك معيار الشجاعة والبطولة يسير حينها في الأرض الموحشة دون تردد أو ريبة ، يذكر ابن خلدون سبب ذلك بأن "أهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية وانتباذهم الأسوار والأبواب، قائمون بالدفاع عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح...قد صار لهم البأس خلقا،والشجاعة سجية، يرجعون إليها متى دعاهم داعٍ أو استنفرهم صارخ"(1) وهذه من صفات الفارس الشجاع المقدام ، يقول سلمة بن الخرشب: (2)

ومُخْتَــاضٍ تَبِــيضُ الرُّبَــدُ فِيــهِ	تُحــومِيَ نَبْتُــهُ فَهْــوَ العَمِيــمُ
غَـدوتُ بِــهِ تُــدافِعُني سَبُــوحٌ	فَـراشُ نُسُـورِها عَجَـمٌ جَـرِيمٌ
مــِنَ المُثِلِّقَتَــاتِ بِجَانِبَيْهـا	إذا مـا بَـلَّ مَحْزِمَهـا الحَمِـيمُ

وتبرز صفات الشجاعة في انطلاق الجاهلي في الصحراء والتوغل فيها ، مما يحمله على المشقة والخوف من المجهول الذي يكتنه داخل الصحراء فيقول المرقش الأكبر: (3)

وَدَوِّيَّــةٍ غَبـراءَ قـد طَـال عَهـدُها	تَهالَكَ فِيها الوِرْدُ والمَرءُ نَاعِسُ
قَطَعـتُ إلـى مَعْرُوفِهـا مُنْكَراتِهـا	بِعيْهامَـةٍ تَنْسـلُّ واللَّيـلُ دَامِـسُ
تَركـتُ بِهَـا لـيلاً طَـويلاً ومَنْـزِلاً	ومُوقَـدَ نـارٍ لـم تَرُمْـهُ القَـوابِسُ

فلا تكمن الشجاعة فقط في الليل المظلم، بل نراه في النهار بارتفاع الشمس وحرارتها المحرقة ، نلحظه في سفر شاق وطريق غير معروفة المعالم والاتجاهات في التوغل بالصحراء ، يبدو هذا في قول المثقب العبدي: (4)

أجِــدَّكِ مَـا يُدرِيـكِ أن رُبَّ بَلْـدةٍ	إذا الشَّـمسُ فِـي الأيـامِ رُكُودُهـا
وصَاحَتْ صَوادِيحُ النَّهارِ وأعرضَتْ	لَوامِـعُ يُطْـوَى رَيْطُهـا وبُرُودُهـا

فالشجاعة والإقدام والقوة من الصفات الإنسانية التي تجلت بها الحياة الاجتماعية الجاهلية، ولعل قسوة البيئة والاحتراب على انتجاع الكلأ رفعا من قيمة القوة والشجاعة، لذا الشاعر الجاهلي على الافتخار بالشجاعة وبث قيمها في الآخرين، وأزرى على صفة الجبن وأهله في ظل مجتمع الغلبة فيه للقوي الشجاع .

7. الثـأر:

هو من القيم التي أوجبتها الطبيعة الاجتماعية في جاهليتهم، وغدا الثأر في رأيهم حائلا يمنع الناس من قتل بعضهم " :ولولا الخوف من الأخذ بالثأر لعمَّ القتل بالحياة. (5) "فالدم لا يغسل إلا

---

(1) للمزيد انظر عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ،تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية، (د.ت،د.ط)ج1.
(2) المفضليات، ص39.
(3) المفضليات، ص225.
(4) المصدر نفسه، ص150
(5) جواد علي: المفصل، ج4، ص39.

بالدم، وتعويض المقتول بالمال مذلة، لا يرضى بها إلا ضعاف النفوس، فلا يقبلون بالقصاص وقد "بلغ من كلفهم بالثأر أنهم كانوا يتجافون النساء والخمر والطيب، لأنه ضرب من التنعم والبهجة لا يليق بحزين مؤثور ، أو لأنها قد تلهي وتشغل عن الجسد في الثأر"[1]

وذلك لمعتقداتهم في أن الثأر يمحو النجاسة عن أهل القتيل، ويطهرهم تطهيرا، ويعيد لهم كرامتهم وحقهم الإلهي[2]، ويتخذ الثأر شكل العقيدة الدينية لما يكتنفه من حلف و قسم بوجوب الأخذ بالثأر ، ولما يحوط به من شعائر دينية عندهم . فبدا العربي مفطوراً على الثأر، مجبولاً على التمسك به، وإنما هو أمر معتاد ليست له كل الخطورة التي تنسج حوله، إذ للثأر تأثيره ، لأنه يعيد للجاهلي توازنه النفسي بعد الخسارة الفادحة التي ألمت به وبقومه عند سقوط حامي العشيرة ، ومنجدها في الضنك والمغبة ، وفي الهول والحرب[3].

فيصور الشاعر الجاهلي الحالة التي تنتاب النفس البشرية إثر هذا الحدث ، كما يبدو في قول الجُميح: [4]

لا تَسقِني إن لم أُزرْ سَمراً	غَطفان مَوكبَ جَحفلٍ دَهِمْ
لَجِبٍ إذا ابتَدَّوا قَنَابِلَهُ	كَنشَاصِ يَومِ المِزْرَمِ السَّجْمْ
مَجْرٍ يَغُصُّ بهِ الفَضاءَ ، لَهُ	سَلَفٌ يَمورُ عَجَاجُهُ ، فَخْمْ
يَنْعَونَ نَضْلَةَ بالرِّماحِ عَلى	جُرْدٍ تَكَدَّسُ مِشْيةَ العُصْمْ
مِن كُلِّ مُشْتَرفٍ وُمُدمَجةٍ	كَالكَرِّ مِنْ كُمْتٍ ومِن دُهْمْ
حتَّى أُجَازِي بالَّذِي اجْتَرَمَتْ	عَبْسٌ بِأَسْوإِ ذَلك الجُرُمْ

يصور الشاعر في الأبيات السابقة قصة مقتل نضلة بن الأشتر على يد بني عبس غدرا ، فيهجوهم لصنيعهم به ، ثم ينذر القوم بالثأر لنضلة ، ثم يرثيه فيعدد مآثره في إكرام الضيف ورعاية الجار .

وكان الافتخار بالثأر والحرص على الانتقام من دوافع الشعر الجاهلي، لأن طبيعة الحياة فرضت هذه العادة، فالقانون هو من وضع البشر وحتى لا ينتهي هذا النوع البشري وحرصا على البقاء كان الأخذ بالثأر من ضروريات الحياة أنذاك، وهي صفة تعد إيجابية حينذاك، وعدم الأخذ بالثأر مهانة ومذلة تلحق بالقبيلة، وهو سلوك إيجابي وحثت عليه الطبيعة الصحراوية والشعر الجاهلي كذلك .

وتضمت قصائد المفضليات حديثا عن الثأر والحرب والوعيد والتهديد إلى جانب الفخر بالقبيلة، وبما أن الشاعر يتكلم عن الثأر والحرب فلابد في مقدمته أن يتناول الفخر، فتمتزج ذات الشاعر بذات القبيلة، فلا نلحظ انفصالا بينهما، فعند الحديث عن البطولة تذوب (الأنا) في ال(نحن) الجماعي، فالشاعر لا يقوم بتسجيل مواقفه البطولية حسب، بل يسجل مواقف قبيلتة ويفتخر بها قبل الفخر بنفسه.

---

(1) أحمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص206.

(2) أنور أبو سويلم: مرثاة الخنساء الإنسانية(الموت،الثأر،الخلود)،مجلة أبحاث اليرموك، م 4، ع 10، 1986، ص56.

(3) المرجع نفسه، ص56.

(4) المفضليات، ص367.

فالحديث عن الثأر /الحرب مرتبط أيضا بالحديث عن الشجاعة والقوة والبأس والثقة بالنفس في ساحات القتال، فيصف الشاعر قبيلته بكل صفات الحمد والمجد ، ومن ذلك قول يزيد بن الخَذَّاق الشَّنِّيّ: (1)

يَـــأْبى لَنــــا أنــــا ذَوو أنـــــفٍ وأُصُــولُنا مِـــن مُحْتَــدِ المَـــجِدِ
أن تَغْـــزُ بالخَرقــــاءِ أُســــرَتَنا تَلْــقَ الكَتائــبَ دُونَنــا تَــرْدِي
أَحَسِــبْتَنا لَحمـــاً عَلــى وَضَــمٍ أَمْ خِلتَنــا فِـي البَـأسِ لا نُجْـدِي
وَمكــــرْتَ مُعْتَليـــاً مُخَتَّتَنَـــا والمَكــرُ مِنــكَ عَلامــةُ الحَمــدِ
وهَـــزَزتَ سَــيفَكَ كــي تُحاربنــا فــانظُر بِسـيفِكَ مَـنْ بــهِ تُـرْدِي

فالعربي في يتمثل حياته الاجتماعية بتفاصيلها، ففي حديثه عن الحرب والثأر والشجاعة والأنفة والمجد، والحديث عن قبيلته وإظهار قوتها وبأسها ، لا يفوته الحديث عن فرسه ، فالخيل تمثل للعرب أساس الحياة بالصحراء، فالتنقل والصيد والحرب كلها تحتاج إلى خيل ، لهذا يقف مطولاً في وصف الخيل وهي عدتهم الأساسسية في القتال التي كانت مجالاً لإظهار الفروسية وإبداء البراعة في الكر والفر والهجوم والدفاع، إذن الحديث عن الخيل أساس الوجود في الشعر العربي، يقول عوف بن عطية: (2)

وَأعــــدَدتُ للحـــــَربِ مَلْبُونــــةً تَــرُدُّ علــى سَائِسِــيها الحِمــَارا
كُمَيتـــاً كَحاشِـــيةِ الأتْحَمــــيِّ لَـم يَـدعِ الصُّـنْعُ فِيهــا عُــوارا
رُوَاعَ الفُـــؤادِ يَكــادُ العَنيـــفُ إذا جَـرتِ الخَيـلُ أن يُستَطَـارا
لَهــــا شُــــعَبٌ كإيـــادِ الغبيــــ طِ فَضَّـضَ عَنهـا البُنـاةُ الشِّجَـارا
لَهــــا رُســــغٌ مُكْـــربٌ أَيِّـــدٌ فَـلا العَظْـمُ واهٍ ولا العِـرقُ فَـارا
لَهـــا حَـــافِرٌ مِثْـــلُ قَعْـــبِ الوليــ دِ يَتَّخِــذُ الفـــأرُ فِيــه مَغـَــارا
لَهـــا كَفَــلٌ مِثْــلُ مَـــتْنِ الطِّـــرا فِ مَـــدَّدَ فِيــه البُنــاةُ الحِتـَـارا

ففرسه سريعة، قوية محكمة الخلق ، ضامرة مفتولة العضلات، متوقدة النشاط، خالية من أي عيب، كما أنه يفتخر بفرسه هذه ،لأنها مصدر قوته، وكأنها معادل موضوعي للشجاعة والإقدام .

ونرى في المفضليات أن الشاعر الجاهلي لا يكتفي بوصف الخيل حسب بل يعدد أسلحته الهجومية والدفاعية ، كالسيف والدرع والقوس والترس، و نتلمس هذا الوصف في أكثر قصائد الثأر كي يشعر الخصم بأن مهاجمه قوي صلب، وليبث في نفس خصمه الرعب ، فتخور عزيمته. وفي النصر مغنم للجماعة(القبيلة) وللفرد المندغم في الذات الجمعية.

ولو تتبعنا ما قيل عن الحرب والانتقام والثأر والتحريض على أخذ الثأر لوقفنا على عدد وفير تهجس بها هذه القصائد، وهذا يعكس صورة الحياة الدامية التي سيطرت على المجتمع الجاهلي ونشهد من خلال قصائدهم مظاهر من حياتهم الاجتماعية التي تظهر في القتال والممارسة اليومية لهذا العنصر، نستشهد ببعض منها ، نحو قول يزيد بن الخَذَّاق الشَّنِّي: (3)

نُعِــدُ لِيــومِ الــرَّوْعِ زَغْفــاً مُفَاضَــةً دِلاصاً وذَا غَـرْبٍ أَحَدَّ ضَرُوسـا

---

(1) المفضليات، ص296.
(2) المصدر نفسه، ص 413-414.
(3) المفضليات، ص298.

نُجِيـدُ عَليهـا البَـزَّ فِـي كُـلَّ مَـأزِقٍ إذا شَـهدَ الجَمْـعُ الكَثِيـفُ خَمِيسـا

ويقول أوس بن غَلْفاء الهُجيمي : [1]

جَلبنَـا الخَيـلَ مـن جَنْبَـي إلـى أجلـى إلـى ضِـلْعِ الرِّجـام
بِكُـلِّ مُنَقِّـقِ الجُـرْدَان مَجْـرٍ شَـدِيدِ الأسْـرِ للأعْـداءِ حَـامِ

تمثل الأبيات الآنفة الصورةَ اليومية الدامية التي تفوح منها رائحة الموت والحياة معا دون توازن بين الطرفين فرائحة الموت أشد، فمن ترك ثأره حلت عليه لعنة العار والهوان.

فالثأر هو من العادات السلبية في مفهومنا القيمي الحالي، بيْد أنه كان من أهم عادات العرب الجاهليين، فلا يتردد أحد عن أخذ ثأره، وإلا فهو ضائع خاضع ويصغر أمام القبائل الأخرى.

فالمفضليات ترسم لنا هذا المظهر بشكل حي، وكأنها سجل حياتي لمظاهر مختلفة من واقع الحياة اليومي الذي عاشه العربي آنذاك .

ويعد الغزو وسيلة مشروعة من وسائل الحياة في المجتمع الجاهلي، وكان يحدث هذا أحيانا عن دوافع قبيلية تتصل بأمن القبيلة ومكانتها الاجتماعية، وأحيانا تمثل مطلبا رئيسا من متطلبات الحياة الاجتماعية، فحياتهم استمرت بالحرب ..الثأر ..الانتقام، الدفاع عن العِرض .

والقيم الأخلاقية الاجتماعية التي تناولها الشاعر تمثل نمطا حماسيا في ذهن العربي الجاهلي من الحرص على الانتقام والثأر ، البطولة، الشجاعة، المروءة والكرم .

8 . الخمر ومجالس الشرب :

وهي مما أُغرِم بها العرب و "أولعوا بها ليُزْجوا فراغهم الطويل الممل ولتزيدهم حمية وحماسة في الحرب، فإنهم كانوا يشربون الخمر لتزيدهم جرأة وشجاعة"[2]

فكانت الخمر إحدى المتع التي يتمتع بها الشاب العربي آنذاك، فهي واحدة من ثلاث متع: الخمر والقمار والنساء[3]، وبذلك غدت الخمر في حياتهم طقسا دينيا اجتماعيا، بل لعله ارتبط ببعض معتقداتهم الجاهلية إحساس يرى في الخمر مشروبا يكسب قوة وأنفة، وعمدوا إلى شربها وسيلة للسكر والنسيان، والمتعة والهروب من واقعهم المرير، وفي هذه البوتقة لابد من الخروج على الطبيعة الصحراوية بقتل فراغهم والبحث عن مسليات تلهيهم عن قساوة الطبيعة " : ويبدو أن الخمر كانت وسيلة لملء ذلك الخواء النفسي، والفكري، وذلك الحرمان الذي كان يغشى الإنسان الجاهلي في مواجهة جور الإنسان وقسوة المكان وجمود المجتمع ، فكأنها كانت تلقي على حياة الجاهلي نوعا من النسيان، وتصور له الحياة التي لا يستطيع أن يعيشها في ظل ظروفه القاسية، كما أنها كانت عند السادة نوعا من أنواع الترف والنعيم بالحياة ووسيلة لملء الفراغ الوجودي من خلال حضرة مصطنعة يواجهون بها إحساسهم بالتناهي والدثور[4] "كر الشاعر الجاهلي الخمر في شعره ووصف تأثيرها ومناقبها، ومن ذلك قول عوف بن عطية[5]:

كَـــأنيِّ اصْـــطَحبتُ عُقَارِيَّـــةً تَصـعَّدُ بـالمَرءِ صِـرْفاً عُقَـارا

---

(1) المصدر نفسه، ص387، وضلع الرجام بالخاء والجيم.
(2)أحمد الحوفي: الحياة العربية، ص345.
(3)جواد علي: المفصل، ج4، ص655.
(4)حسني عبد الجليل يوسف: الشعر والمجتمع في العصر الجاهلي، الرؤية والنموذج الإنساني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص. 58.
(5) المفضليات، ص413.

سُـــــلافَة صَـــــــهْباءَ مَاذِيَّـــــةٍ يَفْـضُّ المُسَــابِئ عنَهــا الجِــرار

فسميت الخمر بالعقار لمعاقرتها ، أي ملازمتها الدَّن[1]، ولقد وصفوا الخمر ورائحتها ، فهذا الأسود بن يعفر يرى أن الدَّن مرفوع على نصائب ، وقد طابت رائحته لما عليه من طيب وريحان فيقول:[2]

سُـــلافة الـدَّنِّ مَــرفُوعاً نَــصائِبُهُ مُقَلَّـدِ الفَغْـوِ والرَّيْحَـان مَــلثُوما
وقَـدْ ثَـوى نِصْـفَ حَـوْلٍ أَشْـهُراً جُـدُداً بِــبابِ أَفَّــانَ يَبْتَــارُ السَّـــلالِيما
حتَّـــى تَناولَهـــا صَهـــباءَ صَـــافِيةً يَرْشُـو التِّجـارَ عَليها والتَّراجِيمَـا

ويرسم المسيب بن علس صورة بديعة بتشبيه ثغر صاحبته بخمر جيدة مُزجت بماء جدول ارتفعت على الضفاف، فيقول: [3]

ومَهـــاً يَـــــرِفُّ كَـــأَنَّهُ إِذْ ذُقْتَـــهُ عَانِيَّـــةٌ شُـــجَّتْ بِمـــاءٍ يَـــرَاعِ
أوْ صَـــوْبِ غَادِيـــةٍ أَدَرَّتـــهُ الصَّـــبا بِبَزِيـــلِ أزهَــرَ مُـــدْمَج بِسَـيَاعِ

وقد شغفوا بالخمر في مجامعهم الفرحة في الأعراس والأعياد والتحالف، وقدموها قرى للضيف ، يقول الأسود بن يعفر النهشلي متحدثاً عن سقاة الخمر، وقد لبس بعضهم الأقراط والأحزمة: [4]

ولَـــقدَ لَهـــوتُ ولِلشَّـــبابِ لَـــذاذَةٌ بِسُـلافةٍ مُزِجَـتْ بِمــاءٍ غَـوادِي
مِـن خَمْـرِ ذِي نَطَـفٍ أَغـنَّ مُنَطَّـقٍ وَافَـــى بِـــها لِـدَراهِمِ الأَسْـجَادِ
يَسعـــى بهـــا ذُو تَـــوْمَتَينِ مُـــشمِّرٌ قَنــأَتْ أَنـــامِلُهُ مِـــن الفِرْصَـــادِ

---

(1) جواد علي: المفصل،ج 4، ص . 665.
(2) المفضليات، ص. 418.
(3) المصدر نفسه، ص61.
(4) المصدر نفسه، ص218.

وقد يجود العربي بالخمر، فيصور الشاعر هذا الكرم ويتخذ منه رداً على العاذلات، كما يقول متمم بن نويرة: [1]

وَلَقَــد سَــبقتُ العَــاذِلاتِ بِشَــرْبَةٍ   رَيّــاً، وراوُوقِــي عَظِـيمٌ مُتْـرِعُ
جَفْـنٌ مِـن الغَرْبِيـبِ خَـالِصُ لَوْنِـه   كَـدَمِ الـذَّبِيحِ إذا يُشَـنُّ مُشَعْشَـعُ
أَلـهُو بِـها يَومـاً وأُلهِـي فِتيـةً   عَـن بَـثِّهم إذْ أُلبِسـوا وَتَقنَّعـوا

أما عن مجالس الخمر فتختلف أوقاتها، فنجدهم يذكرون أنهم كانوا يتصبحون بها، كما يبدو في قول الحادرة: [2]

مُتَبطِّحِـينَ عَلَـى الكَنِيـفِ كَـأنَّهم   يَبْكُـونَ حَـولَ جِنَـازةٍ لـم تُرْفـعِ
بَكَـروا عَلَـيَّ بِسُـحْرةٍ فَصَـبحْتُهمْ   مِـن عَـاتِقٍ كَـدَمِ الغَـزالِ مُشَعْشَـعِ

كما يصور الشاعر مجلس الشرب وحال أصحابه وقت شربهم، وكأنه يقصد بهذا المشهد أن يصور تأثير الخمر وعملها في أجسادهم، ويربط لونها بلون دم الغزال لشدة حمرتها ، هذه الصورة نجدها عند ثعلبة بن صعير بن خزاعي المازني في قوله: [3]

بَـاكَرْتُهُمْ بِسِـباءِ جَـوْنٍ ذَارِعٍ   قَبـلَ الصَّـباحِ وقَبـلَ لَغْـوِ الطَّـائِرِ
فَقصَـرتُ يَـومَهُمُ بِرَنَّـةِ شَـارِفٍ   وسَـمَاعِ مُدْجِنَـةٍ وَجِـدْوى جَـازِرِ
حتَّـى تَـولَّى يَـومُهُمْ وَتروَّحُـوا   لا يَنْثَنُـونَ إلَـى مَقَـالِ الزَّاجِـرِ

كذلك حال ربيعة بن مقروم الضبي، إذ تعقد مجالس الخمر في الصباح ، فيقول : [4]

وَفِتْيـانِ صِـدْقٍ قَـدْ صَـبَحْتُ سُـلافَةً   إذا الدِّيكُ فِي جَوْشٍ مِنِ اللَّيلِ طَرَّبا
سُـخَامِيَّةً صَـهْباء صِـرْفاً، وتَـارةً   تَعَـاوَرُ أيـدِيهِمْ شِـوَاءً مُضَـهبَّا
وَمَشْـجُوجَةً بِالمـاءِ يَنْـزو حَبَابُهـا   إذا المُسْمِـعُ الغِـرِّيدُ مِنهـا تَحبَّبـا

يكثر هذا المشهد في قصائد الجاهليين لأنها ترمز إلى الكرم وإلى الملل من هذا الواقع، وترسم هذا الاضطراب النفسي المستمر بتنقله من حالة الحرب إلى حالة السلم، فكان الملاذ الوحيد الخمرة واللذة بها.

9. الميسر والقمار :

ومن وسائل المتعة التي لجأ إليها الجاهلي في حياته الميسر والقمار، فكان الميسر من مفاخر العرب، لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة وأيام الشتاء، كما أنه ضرب من المقدرة والكرم : "وكانت طريقته أن يجتمع الموسرون ويشتروا جزورا يقسمه الجزار عشرة أجزاء، ثم يجاء بالقداح، فيأخذ كل من الأيسار على مقدرته، ثم يسلمونها إلى أمين يدفنها في الرمل أو يضعها في خريطته، ويدخل يده ويخرج قدحاً وهكذا"[5] فمنافع الميسر أن أهل الثروة والأجواد من العرب كانوا في شدة البرد وتقلب الزمان يتقامرون بالقداح، فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوي الحاجة وأهل المسكنة، هذا إلى جانب هذه الفائدة الاجتماعية، فإن للميسر فائدة اقتصادية تسهم في رواج سوق الإبل والماشية.

---

(1) المفضليات، ص52.
(2) المصدر نفسه، ص 46.
(3) المصدر نفسه، ص 130- 131.
(4) المصدر نفسه، ص376.
(5)أحمد الحوفي: الحياة العربية، ص362.

والذي يُقدِم على بذل ماله بهذه الوسيلة كريم جواد، فامتدحت العرب المياسرة، وحين يهجونه يعيِّرونه بالكف عنه، ويسمونه "البرم "وعليه جاء قول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك: [1]

ولا بَرِمَــاً تُهــدِي النِّســاءُ لِعِرْســهِ إذا القَشْعُ مِنْ حَسِّ الشِّتاءِ تَقَعْقَعَا

فهو ينفي عن مالك حرصه على المال بدليل إقدامه على الميسر وهو يرمز إلى الكرم، لذلك افتخر المرقش الأكبر بإقبال قومه على الميسر، لأنهم يؤثرون نفع الناس وإغاثتهم حين يمر على الناس الصيف ، فيقول:

إذا يَسـرُوا لـم يُـورِثِ اليَسـرُ بَيـنـهُمْ فَـواحِشُ يُنْعَـى ذِكْرُهـا بِالمَصَـايفِ

كذلك سلامة بن جندل ، فيقول: [2]

قد يَسعَدُ الجَارُ والضَّيفُ الغَريبُ بِنا والسَّائلونَ ، وتُغْلِي مَيْسرَ النِّيبِ

فيغدو الميسر من الوسائل الاجتماعية التي تحقق التضامن، وتخلق حالة من البذل، تنأى بالفقير عن مهانة الخنوع وذل السؤال، فيأخذ المال بعرف اجتماعي عن طريق الميسر، كذلك يفخر سنان بن أبي حارثة أنه لعب الميسر والرياح الباردة قد اضطرت النوق إلى الرواح، وأنه قد أطعم أهل الحي من جيران وعفاة ، فيقول: [3]

وقَـد يَسـرتُ إذا مـا الشَّـوْلُ رَوَّحَهـا بَـرْدُ العَشِـيِّ بِشَـفَّانٍ وصُـرَّادِ
ثُمَّـتَ أطعمـتُ زَادِي ، غَيـرَ مُـدَّخِرٍ أهلَ المَحَلَّـةِ مِـن جَارٍ ومِن جَادِ

وعلى الرغم من أن الميسر من العادات الجاهلية التي دأب الإسلام على تحريمها في قوله تعالى " :يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما (البقرة آية 213) إلا أنه قد كان لها فائدة اجتماعية واقتصادية إلى جانب القيمة الأخلاقية التي امتدح بها العرب، وأن للموروث من المعتقدات الأسطورية أثراً في بلورة قيم أخلاقية .

وهذه العادة قد نفعت الفقراء والمحتاجين آنذاك، حتى غدت لديهم قيماً أخلاقية تحقق فائدة اجتماعية، وفيها تتجسد مظاهر التكافل الاجتماعي من منظورها الأخلاقي، وهي الوسيلة التي من خلالها تتم مساعدة الفقراء، في حين جاء الإسلام أخرى لمساعدتهم، وكانت هي البديل الوحيد للتكافل والتضامن الاجتماعيين .

القسم الثاني:القيم السلبية

1. البخل:

أكثر الشعراء من الحديث عن الكرم والكرماء وتغنوا به ومدحوه وافتخروا بالكريم، وفي مقابل هذه الصورة وُجِد البخل، فذموه واستقبحوه .

ويعد البخل من العادات السلبية في المجتمع الجاهلي الذي ذمه المجتمع ونادى إلى هجائه، فكان من الجاهليين غادرون و جبناء وبخلاء ومتهربون من إغاثة الملهوف وجشعون لا يعرفون

---

(1)المفضليات، ص265.
(2) المصدر نفسه، ص233.
(3) المفضليات، ص120.

تعففا، وإلا لم يكن داع لفخر الشاعر ما دامت تلك الفضائل صفات مشتركة للجميع وما دامت أضدادها لا تقع أبدا من أفراد آخرين،يقول علقمة بن عبدة: (1)

وَالجُـــودُ نَافِيـــةٌ لِلمـــالِ مَهلَكـــةٌ   وَالبُخـــلُ بَـــاقٍ لِأَهلِيـــهِ ومَـــذْمُومُ

ويقول عمرو بن الأهتم: (2)

بِنَفسِـــكَ أَو بِمَالِـــكَ فِـــي أُمـــورٍ   يَهـــابُ رُكُوبَهـــا الـــوَدِعُ الـــدَّثُورُ

أي أن يجود بماله وبنفسه لأن لا قيمة للمال فهو ذاهب والصيت باق.
ويقول عوف بن الأحوص بطريقة غير مباشرة عن ذم الأخلاق الرذيلة وغير المحببة: (3)

وَلَكِـــنْ هُلْـــكَ الأَمـــرِ أَنْ لا تُمَـــرِّهُ   ولا خَيـرَ فِـي ذِي مِـرَّةٍ لا يُغِيرُهـا

وبشكل مباشر يذم عمرو بن الأهتم البخل ويدعو زوجته ألا تدعوه إلى البخل ، وأن تشجعه على الكرم ، فَيُبشِّع من صورة البخل ، قائلاً: (4)

ذَرِينِـــي فَـــإنَّ البَخـــلَ يـــا أمَّ هَيـــثم   لِصَالِحِ أخلاقِ الرِّجالِ سَرُوقُ
ذَرِينِـــي وحُطِّـــي فِـــي هَـــوايَ فَـــإنَّنِي   علـــى الحَسَـــبِ الزَّاكِـــي الرَّفيـــعِ شَـــفِيقُ
وإنِّـــي كَـــرِيمٌ ذو عِيـــالٍ تَهُمُّنِـــي   نَـــوائبُ يَـــغشَى رُزْؤُهـــا وحُقُـــوقُ

ويقول ذو الإصبع العدواني : (5)

إنْ تَزعُمَـــا أَنَّنِـــي كَبِـــرتُ فَلَـــم   أُلْـــفَ بَخِـــيلاً نِكْســـاً ولا وَرَعـــا

فأينما وُجد الكرم والافتخار به وُجد على النقيض مباشرة ازدراء البخل وذمه، فهما متلازمان، ونلحظ أحيانا ذم البخيل والبخل بالإيحاء .

2. الغدر والخيانة:

والغدر هو نقيض الوفاء وهو من أنبل الخصال الحميدة، والغدر عادة يشمئز منها العربي ، فبالرغم من الوفاء الذي يسود مجتمعه والعلاقات الاجتماعية الحميمة والوثيقة الصلة، إلا أنه يبقى مجتمعاً بشريا يسوده المحمود والمذموم من العادات، يقول الحادرة نافيا عن نفسه صفة الغدر: (6)

---

(1) المصدر نفسه، ص350- 351.
(2)أحمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص 248.
(3)المفضليات، ص401.
(4)المصدر نفسه، ص411.
(5)المصدر نفسه، ص178.
(6) المصدر نفسه، ص125-126.

أسُـميَّ وَيْحـكِ هَـل سَـمِعتِ بِغَـدْرةٍ رُفِـعَ اللّـواءُ لنَـا بِهـا فـي مَجْمـعِ

فمن يغدر لا يصفح عنه المجتمع الجاهلي بسهولة ولا يتعامل معه ، بل يعاقبه ويؤدبه كي لا يقع في هذه الصفة مرة أخرى، فيرفع لواء في سوق عكاظ أمام جميع الناس والوفود القادمة إليه فَيُشهِّرون به بأنه غدر ، وهذه صفات مذمومة في كل مجتمع على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وهي من العادات السلبية وغير المحبذة في المجتمع الجاهلي ، يقول يزيد بن الخذاق: [1]

نُعمـــــانُ إنَّـــــكَ خَـــــائِنٌ خَـــــدِعٌ يُخْفِـي ضَـمِيرُكَ غَيـرَ مَـا تُبـدِي

المحور الثاني: الأسرة والعلاقات الأسرية:

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية التي يمكن الوقوف عليها من خلال المفضليات جوانب تتعلق بحياة الأسرة في المجتمع القبلي في إطارها الضيق ، كعلاقة الزوج بالزوجة، والأسرة في إطارها الواسع وتشمل العلاقات بين الأقارب، وسيتم طرحها في نقاط :

الأولى :موقف الزوجة من زوجها، ويتجسد هذا الموقف في مشهدين، المشهد الأول: يتمثل في علاقة الزوجة بزوجها علاقة إيجابية تقوم على الاحترام ومراعاة كل منهما حقوق الآخر، ومن هذه الحقوق عدم إفشاء المرأة سر الزوج مهما غاب عنها، وهذا المشهد يصوره علقمة بن عبدة في قوله: [2]

مُـــنَعَّمةٌ مـــا يُسْـــتَطاعُ كلامُـــها عَلى بَابِها مِن أنْ تُزَارَ رَقِيبُ
إذا غَـابَ عَنْهـا البَعـلُ لـم تُفْـشِ سِـرَّهُ وتُرْضِي إيابَ البَعلِ حِينَ يَؤُوبُ

أما المشهد الثاني فيتمثل في علاقة الزوجة بزوجها علاقة سلبية، من ذلك نشوزها ونفورها من زوجها لأسباب متعددة ، ويرسم هذا المشهد الشاعر الجميح حيث يقول: [3]

---

(1) المفضليات، ص154.
(2) المصدر نفسه، ص45.
(3) المصدر نفسه، ص296.

أمْسـتْ أُمامـةُ صُـمْتاً مـا تُكلِّمُنَـا ... مَجنونَـةٌ أمْ أحسـَّتْ أهـلَ خَـرُّوبِ
مَـرَّت بِراكـبٍ مَلْهُـوزٍ فَقـال لَهـا ... ضُـرِّي الجُمَـيحَ ومَسِّيـهِ بِنَّعـذيبِ
ولـو أصـابتْ لَقالـتْ ، وَهِـيَ صَـادِقَةٌ ... إنَّ الرِّياضـَةَ لا تُنْصِبْـكَ لِلشِّـيبِ
يَـأْبَى الـذَّكاءُ وَيـأْبَى أنَّ شَـيْخَكُمُ ... لـن يُعطِـيَ الآنَ عَـنْ ضَـرْبٍ وَتأْدِيـبِ
أمَّـا إذا حَـرَدتْ حَـرْدِي فَمُجْرِيَـةٌ ... جَـرْدَاء تَمنـعُ غَـيْلاً غَيـرَ مَقـْرُوبِ
وإنْ يَكُـنْ حَـادِثٌ يُخْشَـى فَـذو عِلَـقٍ ... تَظـلُّ تَزْبُـرُه مِـن خَشْيَـةِ الـذِّيبِ
فَـإنْ يَكُـنْ أهلُهـا حَلُّـوا عَلـى قِضَـةٍ ... فَـإنَّ أهْلِـي الأولـى حَلُّـوا بِمَلْحُـوبِ
لمَّـا رَأتْ إبلـي قَلَّـتْ حَلُوبَتُهـا ... وَكـلُّ عَـامٍ عَليهـَا عـَامُ تَجْنِيـبِ
أبقـى الحَـوادِثَ مِنهَـا وهْـيَ تَتْبعُهـا ... والحـَقُّ صِرْمَـة رَاعٍ غَيـرِ مَغْلـوبِ
كَـأنَّ رَاعِينَـا يَحْـدُو بِهـا حُمُـراً ... بَـين الأبـارِقِ مِـن مَكـْرَانَ فَالُّلـوبِ
فَـإنْ تَقـرِّي بِنـا عَينـاً وَتَحْتَفِضِـي ... فِينـا وتَنْتَظـرِي كـَرِّي وَتَغْرِيبـي
فَـاقنَيْ لَعَلَّـكِ أنْ تَحْظِـي وتَحْتلِبـي ... فِي سَحْبَلٍ مِن مُسُوكِ الضَّأنِ مَنْجُوبِ

يذكر الشاعر في الأبيات صدود الزوجة عنه، وكأنها قد أصيبت بالمس والجنون، فسمحت لرجل من أعدائه أن يتلاعب بعواطفها ويقنعها بالمفارقة، فغدت صامتة لا تتكلم معه، مما يدل على التجربة المريرة التي عاشها الجميح في ضوء نشوز زوجته.[1] فيشكو هنا الزوج من سلوكها مدافعا عن نفسه، ساخراً من زوجته، وهي قصيدة من أشد القصائد التي احتفظت بها المفضليات طرافة، وفي رأي الدكتور محمد النويهي أنها صادرة عن صميم التجربة الحية النابضة، وأنها تقترب اقتراباً عجيباً من لغة الحديث الحية الزاخرة التي يتحدث بها الناس في واقع تجاربهم.[2]

ونحن نعد هذه القصائد ومثيلاتها صورة صادقة ومرآة عاكسة لأدق التفاصيل التي حدثت في المجتمع الجاهلي، ولتبيان مدى التقارب ما بين المجتمعات الإنسانية على اختلاف العصور والأزمنة .

فهذه صورة مشهدية بمظهر اجتماعي يدور في إطار العلاقة الزوجية التي يبرر فيها الشاعر تلك المشاجرات التي حدثت بينه وبين زوجته التي أبدت سلوكاً غير مرغوب فيه، فكأنَّ الشاعر أراد من خلال هذه الأبيات أن يذكرنا بمشهد حياتي صادق.

ولعل الفقر سبب النشوز بين الأزواج، علاوة على أسباب أخرى كالحياة القاسية وإسراف المال وإنفاقه على الفقراء ،والبعد عن الأهل والشيب وعلو السن، فقد عبر عن هذه الظاهرة السلبية في الحياة الزوجية الشاعر الأسود بن يعفر، في قوله:[3]

لمَّـا رَأتْ أنَّ شَـيبَ المَـرءِ شَـامِلُهُ ... بَعد الشَّبابِ ، وكانَ الشَّيْبُ مَسْؤُومَا
صَـدَّتْ وقَالـتْ: أرى شَـيباً تَفَرَّعـهُ ... إنَّ الشَّبابَ الذي يَعْلُو الجَراثِيمَا

ولعل الشاعر علقمة بن عبدة أكثر معرفة بالنساء وسلوكياتهن ، فيقول:[1]

---

(1) المفضليات، ص391.
(2) المصدر نفسه، ص34- 36.
(3) ماهر المبيضين: الأسرة في الشعر الجاهلي، ص69.

فَــإِنْ تَســألُونِي بالنِّســاءِ فــإِنَّني بَصِـيرٌ بــأَدْواءِ النِّســاء طَبيــبُ
إذا شَــابَ رَأسُ المَـرءِ أو قَـلَّ مَالُــه فلَـيسَ لَــهُ مِـن وُدِّهِـنَّ نَصِـيبُ
يُـرِدْنَ ثَـراءَ المَــالِ حَيـثُ عَلِمْنَــهُ وَشَـرْخُ الشَّـبابِ عِنَـدهُنَّ عَجِيـبُ

فعلقمة أصبح طبيباً خبيراً بأدواء النساء، فيصور حبهن للمال وللشباب، فإذا زال أحدهما أصبح ودهن بعيداً غير منال .

وتظهر صورة أخرى للمرأة في المفضليات من خلال مشهد سلبي ، وتعرف هذه المرأة بالعاذلة ، وهي التي تتدخل في سياسة إنفاق الزوج ولومه على أنفاق ماله والكرم به خوفاً من الهلاك ، إذ كانت ترى أن الحياة صعبة وأن أولادها أحق به،وقد تحدثنا عنه بتفصيل في الكرم لارتباطه به.

الثانية: العلاقات الأسرية الواسعة-:

1. الرثاء:

حينما نلج في الحديث عن الرثاء تحضرنا المشاعر والأحاسيس والعواطف الإنسانية التي تفيض بالمحبة للميت، فلا نستذكر عنه إلا كل طيب، ويذكر الجاهلي محاسن الميت ويعبر عن أخلاقه ومناقبه ويبكي عليه بكاءً حارا، ويدعو له، وقد عدّه يحيى الجبوري نوعاً ثانيا من أنواع الرثاء التي ذكرها، إذ جعلها في ثلاثة أنواع، تبدأ بالنياح والعويل وتنتهي بالتفكير في مصير الإنسان بالحياة والدهر، ويتوسطها هذا النوع الذي نحاول استجلاء ملامحه بوصفه ظاهرة اجتماعية برزت في المفضليات. (2)

ولم يأتِ الحديث عن الرثاء في المفضليات منفصلاً كباقي المظاهر التي تناولها البحث إلا في عرضه لأربع قصائد إسلامية -علما بأن المنهج الرثائي قد تغير بتغير الحياة، وجاء الحديث عنه في أبيات متناثرة ومتفرقة لا تشكل قصائد مستقلة، فليست هناك قصائد جاهلية خالصة للرثاء بل هي مقطوعات قيلت في الرثاء، ونحن هنا بصدد دراسة رثاء الجاهلية.

ولقد تعددت مظاهر الرثاء بين رثاء الزوج والزوجة والأبناء والأخوة، وفي الغالب " :كان رثاؤهم بكاء على حياتهم القصيرة، وتصويراً لمأساة البشر في مواجهة الموت الحق، واعترافاً بالضعف الإنساني أمام قوة قاهرة لا مفر من حكمها، وتأملاً في الحياة القصيرة المليئة بالأوجاع والآلام"(3)

ويقول المرقش الأكبر: (4)

هَــلْ بِالــدِّيارِ أنْ تُجِيــبَ صَمَــمْ لَــو كَــانَ رَسْــمٌ نَاطِقــاً كَلَّــمْ

ويقول المُمَزِّق العبدي متألماً بحتمية الموت ونهاية الإنسان، قد سيطرت عليه حالة من التشاؤم والكآبة: (5)

هَلْ لِلفتَى مِن بَناتِ الدَّهرِ مِن وَاق أَمْ لَـهُ مِـن حِمَـامِ المَـوتِ مِـن رَاق

---

(1) مي يوسف خليف: القصيدة الجاهلية في المفضليات،دراسة موضوعية وفنية،مكتبة غريب، القاهرة، ص. 249 ، وللمزيد انظر محمد النويهي: الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة،ج1، 1977،(د.ط).
(2)المفضليات، ص392.
(3) المفضليات، ص418.
(4) المصدر نفسه، ص392.
(5)يحيى الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط9، 2001، ص178.

لكننا نلاحظ أن كتاب المفضليات يضم مشاهد رثاء النفس /الذات أكثر من أي نوع آخر ،فقد وقف عبدة بن الطبيب يتأمل مصيره بعد الموت ، فقال: [1]

ولَقـد عَلِمْـتُ بِـأنَّ قَصْـرِيَ حُفْـرَةٌ غَبـْراءُ يَحْمِلُنـي إليهَـا شَـرْجَعُ
فَبكَـى بَنـاتِي شَـجْوَهُنَّ وَزَوْجَتِـي والأقْرَبُـونَ إلـيَّ ، ثُـمَّ تَصـدَّعُوا

فهو مؤمن بمصيره بالموت بعد هذه الحياة المليئة بالملهيات والمتع، فيصور نفسه وقد حُمِلت إلى القبر، وما هي إلا أيام معدودة تبكي فيها بناته وزوجته والأقربون حزناً لموته، ثم يتفرقون ويعود كل شيء إلى حاله بعد ذلك .

كما أنه لم يعد الشاعر يرثي ميتاً قريبا أو صديقا بل أخذ يرثي نفسه وكيف سيحزن عليه أناسه، يصف ذلك عبد يغوث الحارثي في قوله: [2]

فَيـا رَاكِبـاً إمَّـا عَرضْـتَ فَـبَلِّغَنْ نَـدامَايَ مِـنْ نَجـرَان أنْ لا تَلاقِيـا
أحقَّـاً عِبَـادَ اللهِ أنْ لَسـتُ سَـامِعَاً نَشِـيدَ الرِّعَـاءِ المُعْـزِبينَ المَتَالِيـا

وإذا نظرنا في مقطوعات الرثاء وجدنا جانباً من التشاؤم من قضية الموت، وبالتالي فهي محاولة لفلسفة هذه القضية الغرائبية الغيبية، فما الذي يدفع الإنسان إلى الحرص على الدنيا ما دام أنه تاركها وكل ما يجمعه ليس له، فهو للوارث الباقي، يقول الممزق العبدي: [3]

هَوِّن عليك ولا تَولَـعْ بإشفاقِ فإنَّمَـا مالُنَـا لِلـوارث البـاقِيَ
كَأنَّني قَدْ رَمَانِي الدَّهرُ عَن عُرُضٍ بِنَافِـذَاتٍ بِـلا رِيـشٍ وأفْـواقِ

وظهرت صورة رثاء الأخوة التي مثلها متمم بن نويرة في رثائه أخاه مالكاً، مما يؤكد رابطة الأخوة في العصر الجاهلي، إذ تظهر العاطفة الصادقة التعبير عما ألمَّ بالشاعر من حزن، ولذلك نجد الشعراء يقدمون على رثاء أخوتهم الذين فقدوهم بأرق المشاعر الإنسانية وأعذبها، فيقف الشاعر على خصال أخيه المحمودة فيذكرها، يقول متمم بن نويرة: [4]

فَعَينَّـي هَـلاَّ تَبكِيـان لِمَالِـكٍ إذا أدْرتِ الـرِّيحُ الكَنِيـفَ المُرَفَّعَـا
ولِلشَّـرْبِ فَـابْكِي مَالِكـاً ولِبُهْمَـةٍ شَدِيدٍ نَواحِيـهِ عَلـيَّ مَـنْ تَشَـجَّعَا

ويصف مشهد التفرقة والرحيل بعدما وضع في التراب: [5]

فَلمَّـا تَفَرَّقْنَـا كَـأنِّي ومَالِكـاً لِطُـولِ اجْتِمـاعٍ لـم نَبِـتْ لَيلـةً مَعـاً

ثم هو يصور ما ألم به من الأرق والوجع لهذا المصاب في قصيدة أخرى: [6]

أرِقْـتُ ونَـامَ الأخْلِيـاءُ وهَـاجَنِي مَـعَ اللَّيلِ هَـمٌّ فِـي الفُـؤادِ وَجِيـعُ
وَهَـيَّجَ لـي حُزنـاً تَـذكُّرُ مَـالِكٍ فَمـا نِمْـتُ إلاَّ والفُـؤَادُ مَـرُوعُ
إذا عَبْـرةٌ ورَّعْتُهـا بَعـدَ عَبْـرةٍ أبَـتْ واسْـتَهلَّتْ عَبـرَةٌ ودُمُـوعُ
كَمـا فَـاضَ غَـرْبٌ بَـينَ أقْـرُنِ قَامَـةٍ يُـرَوِّي دِبَـارا مَـاؤُهُ وَزُرُوعُ

---

(1)أنور أبو سويلم :مرثاة الخنساء الإنسانية ، ص. 38.
(2) المفضليات، ص237.
(3) المفضليات، ص148.
(4) المصدر نفسه، ص300.
(5) المصدر نفسه، ص156-157.
(6) المصدر نفسه، ص300.

فقد أصابه الأرق لشدة حزنه حين يذكر مالكاً ، وإن دموعه لا ينضب معينها ، وكأنها ماء الدلو ذو الثقوب الواهية ، فيظهر من خلال هذا التفجع الحسرة على فقدان مالك مما يؤكد عمق الروابط الأخوية بينهم ،ولا يمتلك الشاعر أمام هذا المصاب الجلل إلا الدعاء بالسقيا لقبر الميت ، يقول: (1)

سَقَى اللَّـهُ أَرْضَـاً حَلَّهَـا قبـرُ مَالِـكٍ ذِهابَ الغَـوادِي المُدْجِنَاتُ فَأَمْرَعَا

وَآثَـرَ سُـيْلَ الـوَادِيَيْنِ بِـدِيمَةٍ تُرَشِّحُ وَسَمِيَّاً من النَّبْتِ خِرْوَعا

فمن خلال هذه الأبيات نستنتج مدى عمق الرابطة الأخوية، فهي إحدى القيم الاجتماعية الإنسانية الخالدة، فكان المجتمع الجاهلي مجتمعاً إنسانياً فيه من التلاحم والترابط بين الأخوة والأقارب، فالنسيج الاجتماعي كان موصولاً، وإن داخله صراع واحتراب.

3. البغض بين الأقارب :

غالباً ما تكون العلاقة بين الأقارب متلاحمة ، بعيدة عن البغض والكراهية والحقد ، فهم يد واحدة تهب لنصرة أفرادها ، أن العصبية القبلية التي أوجدت الكثير من القيم والعادات بين أفراد القبيلة أو العائلة الواحدة في العصر الجاهلي ، تسببت في إيجاد بعض المزالق لدى أفراد القبيلة التي تؤدي إلى تفكك عراها ، وأحياناً يؤدي بهم هذا البغض إلى مراجعة النفس وإبراز محاسن أفراد القبيلة على نحو ما نجد في قول ذي الإصبع العدواني: (2)

ولِـي ابنُ عَمٍّ عَلـى مَـا كَـان مِن خُلُـقٍ مُخْتَلِفَـان فَـأَقْلِيـه وَيَقْلِينِـي

أَزَرى بِنَـا أَنَّنَـا شَـالَتْ نَعامَتُنـا فَخَالَنِـي دُونَـهُ بَـل خِـلْتُهُ دُونِـي

يَـا عَمْـرو إلا تـدع شَـتْمِي وَمَنْقصـتِي أَضْـرِبْكَ حَيـثُ تَقـولُ الهَامـةُ اسْـقُونِي

لاهِ ابـنِ عَمِّـكَ لا أَفْضَلْـتَ فِـي حَسَـبٍ عَنِّـي ، ولا أنـتَ دَيـانِي فَتَخْزُونِـي

ولا تَقُـوتُ عِيـالِي يَـومَ مَسْغَبَـةٍ ولا بِنَفسِـكَ فـي العَـزَّاءِ تَكْفِينِـي

إنـي لَعمـرُكَ مـا بَابِـي بِـذي غَلَـقٍ عَن الصَّدِيـق ولا خَيري بِمَمْنُون

ومَـا لِسـانِي علـى الأَدْنَـى بِمُنْطَلِـقٍ بالمُنكِـراتِ ، ومـا فَتْكِي بِمأْمُون

عَـفٌّ نَـدُودٌ إذا مَـا خِفْـتُ مـن بَلَـدٍ هُـوناً فلسـتُ بِـوقَّافٍ عَلى الهُون

دُرْمٌ سِـلاحِي فَمـا أُمِّـي بِـرَاعِيةٍ تَرعَـى المَخَـاضَ ، ومَـا رأيـي بِمَغْبُـون

إنِّـي أَبِـيٌّ ذو مُحَافَظَـةٍ وابـنُ أَبِـي أَبِـي مِـنْ أَبِيِّيـن

فيصور الشاعر حاله مع ابن عمه الذي يكرهه ويحقد عليه كما يحقد الشاعر عليه كذلك، مما أدى به إلى أن يتوعده إن لم يكف عن شتمه، وهنا يلجأ إلى الفخر بحسبه، ويبين صفاته وخصاله، وأن أمه لم تكن راعية، وهو محافظ أبي، ويتصف بالإباء والشجاعة .

ويلمح المثقب العبدي إلى العلاقات الاجتماعية الزائفة بين الناس، وأن هناك رياء ونفاقا بين الأقارب، وهي حالة تسود في المجتمع الجاهلي، لأن الحرية مقتصرة عليهم ولا تصل إلى حد الجماعة أحيانا، فكأنَّ الشاعر يزجرهم عن هذا الفعل: (3)

---

(1) المفضليات، ص266.

(2) المصدر نفسه، ص267.

(3) المفضليات، ص271.

لا تَرانِـــي رَاتِعـــاً فـــي مَجْلِـــسٍ فِـي لُحُـومِ النَّـاسِ كالسَّبعِ الضَّـرِمْ
إن شَـــرَّ النَّـــاسِ مـــن يُكشِـــرُ لِـــي حِـينَ يَلْقانــِي وإنْ غِبــتُ شَــتَمْ
وكــــــلامٍ سَــــيِّئٍ قـــــَد وُقِـــرتْ أُذُنِـي عَنـهُ ومَـا بِـي مِـن صَـمَمْ

فكأنَّ الناس في حضرته لا يتكلمون عنه إلا بالطيب ويمدحونه ويمجدون خصاله، وحين يغيب عنهم ويغادر مجالسهم فإنهم يذمونه ويقبحون أفعاله وأقواله، لكنه عن كل هذا يوقر أذنه ولا يسمع كلامهم، ويتصامم عن السيئ من كلامهم .

وهذه الصفة لا تقلل من قيم المجتمع الجاهلي وعاداته وسلوكه، فهو كأي مجتمع إنساني تسوده الإيجابيات والسلبيات .

3. الهجاء:

حفلت المفضليات بمشهد الهجاء والذم، فالمدح والكرم يقابلهما الهجاء والذم، الهجاء لكسب الحرام ، وانتهاك الحرمات، والطغيان عند الغنى، واللؤم عند الفقر، فالهجاء من إحدى نقاط التوازن الاجتماعي، وهو طبيعة في النفس الإنسانية ترتبط بتفاوت الناس في حظوظهم من الرزق والجمال والسلطان، فالهجاء سلاح من أسلحة القتال يضعف الشاعر، ويرتبط بالوعيد والبحث عن العيوب، ولعل المنافسة هي الدافع وراء الهجاء والتعبير عن الشعور بالسخط تجاه الخصوم، إذ كان قديماً أثراً من آثار الانتقام والتفشي، فلازم الهجاء الإنسان، وذلك لكي "يؤدي وظيفة اجتماعية ونفسية تشبه التطهير، حيث يتخلص الشاعر وقومه من بعض النزعات بإرضاء ميلهم لتحطيم نموذج يكرهونه خلال التجربة التي يعيشونها، وهم يقيمون ضمناً نموذجاً مضاداً لنموذج الهجاء ."[(1)]

و لقد نشأ الهجاء مرتبطاً بالعصبيات القَبَلية التي هي ظاهرة إيجابية في الحياة الاجتماعية العربية حين يكون المقصود بها نصرة ذوي القربى حقاً، ذلك لأن الظروف التاريخية والبيئية العربية الصحراوية والمجتمع العربي القبلي، كل هذه الأمور جعلت العصبية القبلية من هذا الجانب نافعة وضرورية للمجتمع. [(2)]

وارتبط الهجاء عادة بالحروب وازدهر بازدهارها وكثيراً ما يسبقها، فالشاعر لسان القبيلة الذي ينوب عنها ويهجو خصومها ويدافع عنها، لذلك نجده مرتبطاً بالفخر والمدح، وقد تحوَّل الهجاء لدى بعض الشعراء إلى هجاء قومهم، وذلك نحو قول عميرة بن جُعل: [(3)]

كَسـا اللهُ حيَّـيْ تَغْلِـبَ ابـنةِ وَائـل مِـن الُّلـؤْمِ أَظْفـاراً بَطيئاً نُصُـولُها
فَمـا بهـم أنْ لا يَكُونُـوا طَرُوقـةً هِجـَاناً ، ولكـن عَقَّرتْهَـا فُحُولُهـا
تَـرى الحَاصِنَ الغَرَّاءَ مِنهُمْ لِشَارِفٍ أخِـي سَلَّةٍ قَد كَـان مِنـهُ سَلِيلُهـا
قَلِيــلاً تَبَغِّيهـــا الفُحُـــولةُ غَيــرَهُ إذا اسْتَسْعَلَتْ جِنَّانُ أرضٍ وغُولُها
إذا ارْتَحــلُوا مِـنْ دَارِ ضَـيمٍ تَعـاذَلُوا عَليهـم ، وَردُّوا وفْـدَهُمْ يَسْتَقِيلُهـا

فيهجو عميرة قومه بني تغلب، ويذكر أنهم لم يؤتوا في لؤمهم من قبل أمهاتهم، إنما أتوا من قبل آبائهم، وأن المرأة الكريمة منهم تتزوج الرجل المسروق النسب، أي الذي لا يُعْرف أبوه، ومن

---

(1) المصدر نفسه، ص268.
(2) المفضليات، ص162-163.
(3) المصدر نفسه، ص294.

ذلك جاءتهم الهجنة، ثم أنحى عليهم باللائمة في أنهم يرضون الذل ويسيغونه، ورسم لذلك صورة طريفة في قوله: [1]

إذا ارْتَحلُوا مِنْ دَارِ ضَيمٍ تَعاذَلُوا عَلَـيهم ، وَرَدُّوا وفْـدَهُمْ يَسـتَقِيلُها

أي أنهم من ذلهم إذ أخذتهم العزة فرحلوا عن منزل الذل أدركهم ذلهم ، فتعاذلوا لِمَ تركوه ؟ وبعثوا وفدهم إلى أهل ذلك المنزل يستقيل خطيئتهم التي أخطأوها بانتقالهم .

وكان الهجاء يشمل البخل الذي يدفعهم إلى إخفاء نارهم حتى لا تُرى ليلاً، ويمثل الهجاء الحقد الذي يملأ عليهم صدورهم ، فيقول المرقش الأكبر: [2]

لَســـنَا كَـــأقوامٍ مَـــطاعِمُهُمْ كَسْـبُ الخَنَـا ونَهْكَـةُ المَحـرَمْ
إن يُخْصِبُـوا يَعْيَـوا بِخَصْـبِهمُ أوْ يُـجْدِبُوا فَهُـمْ بِـهِ ألأمْ
عَـامَ تَـرى الطَّيـرَ دَواخِـلَ فِـي بيُـوتِ قَـومٍ مَعْهُـمُ تَرْتَـمْ
ويَخْـرُجُ الـدُّخَانُ مِـن خَلَـلِ الـ سِّتْرِ كَلَـونِ الكَـوْدَنِ الأصْحَـمْ
حَتَّـى إذا مَـا الأرضُ زَيَّنَهـا الـ نَّبْـتُ وجُـنَّ رَوْضُـها وأكَـمّ
ذاقُـوا نَـدامةً فَلُـو أكَلُـوا الـ خُطْبَـانَ لـم يُوجَـدْ لَـهُ عَلقَـمْ

ومن أشد الوصمات التي يوصم بها العربي أن يُهجى أحدهم ويوصف بالرق، فقد كان العرب يأنفون من أن يكونوا عبيداً؛ لاعتزازهم بنقاء الدم الذي يجري في عروقهم، يقول عميرة بن جُعل: [3]

لَيَـالِيَ إذْ أنـتُمْ لِـرَهْطِيَ أعْبُـدٌ بِرَمَّـانَ لمَّـا أجْـدَبَ الحِرْمَـانِ
وَإذْ لَهُـمُ ذَوْدٌ عِجَـافٌ وصِـبْيَةٌ وإذْ أنـتُمُ لَيسَـت لَكُـم غَنَمـانِ
وجَـدَّاكما عَبْـدا عُمَيـرِ بـنِ عَـامرٍ وأُمَّاكُمـا مِـنْ قَيْنَـةٍ أمَتَـانِ

فقد هجا الشاعر رجلين ووصفهما بأن قومهما كانوا عبيد القوم، وكذلك كانت أمهاتهم، فالعبودية تمثل عند العربي الجاهلي وصمة عار؛ لأنه عاش حراً، يتحرك دون قيد أو حدود بسبب الطبيعة الجغرافية، فالصحراء واسعة لا حد لها ولا قيد فيها، متسعة لذلك فإن الحر لا يقبل إلا أن يكون سيداً .

وكان العرب إذا أسروا شاعراً شدوا لسانه لئلا يهجوهم ، كما فعلت تميم مع عبد يغوث الذي يقول: [4]

أقُـولُ وقَـد شَـدُّوا لِسـانِي بِنِسْـعَةٍ أمَعْشَـر تَـيمٍ أطْلِقُـوا عَـنْ لِسَـانِيا

وقد يُصرِّح بعض الهجائين باسم المهجو، فيقول الخَصَفي ذاكراً اسم الحصين : [5]

يُغَنِّـي حُصَـينٌ بالحِجَـازِ بَناتِـه وَأَعْيـا عَليـهِ الفَخْـرُ إلَّـا تَهَكَّمَـا

---

(1)حسني يوسف: الشعر والمجتمع ، ص95.
(2) علي الشعيبي: ملامح اجتماعية في الشعر الجاهلي والإسلامي، دار الرفاعي، الرياض، 1986، ص23.
(3) المفضليات، ص257- 258.
(4) المصدر نفسه، ص258.
(5) المصدر نفسه، ص258

فيرد الحصين عليه بذكر الخصفي المحارب: [1]

لأقسَمتُ لا تنفَكُّ مِنِّــي مُحَـارِبٌ   عَلَـى آلـةٍ حَـدْباءَ حتَّـى تَنـدَّمَا
ولا غَرْوَ إلاَّ الخُضْرُ خَضْرُ مُحَارِبٍ   يُمَشُّـونَ حَـوْلِي حَاسِـراً وملأَّمــا

والعرب تخشى الهجاء، فكانوا يتوارون منه خجلاً، لأنه يلازمهم ويلتصق بسمعتهم، ويتكلم به الناس عنهم، وأشد الناس خوفاً من الهجاء هم أشراف الناس ووجوه القوم .

وقد يكون الهجاء أكثر أثراً على السامع من المدح والفخر، فقد يُنسى شعر المدح لكن شعر الهجاء يبقى عالقاً في النفوس، وهو أشد إيلاما من وقع السيوف ؛ لذلك خاف منه الجاهليين وابتعدوا عن الأنظار حتى لا يهجوا .

المحور الثالث :المعتقدات

من المعتقدات التي زخرت بها الطبيعة الجاهلية:

1. الإيمان بحتمية الموت:

يعرض الشعراء للزمن وتقلبه، والمصير المحتوم الذي ينتظر الإنسان في الحياة، ليضع حداً لها كما وضع حداً لحياة من سبقه ، مسجلاً في النهاية حتمية الموت الذي لا يعرف الإنسان متى يأتيه .

كما أنهم يؤمنون أن كل إنسان على هذه الأرض لابد من انتهاء حياته ،يقول المُمَزِّق العبدي: [2]

هَلْ لِلفتَى مِن بَناتِ الدَّهْرِ مِن وَاقِ   أمْ هَلْ لَهُ مِن حِمَامِ المَوتِ مِن رَاقِ

ويؤمن بأن كل ما يتركه باقٍ على الأرض لا يأخذ معه شيئاً ، فلماذا كل هذه المعاناة والتعب والخوف ، فيقول: [3]

هَــوِّنْ عَليــكَ ولا تَوْلَــعْ بِإشــفَاقِ   فإنَّمــا مَالُنــا لِلــوَارثِ البَــاقِي

(1) المفضليات، ص240.
(2) المصدر نفسه، ص259- 260.
(3) المصدر نفسه، ص157.

وقول علقمة بن عبدة: [1]

وكُـلُّ حِصْـنٍ وَإِنْ طَالَـتْ سَـلامتُهُ عَلَـى دَعَائِمِـهِ لابُـدَّ مَهْـدُومُ

وهي الفكرة التي كانت تمثل تدميرا للحياة ، لكنها أصبحت تمثل فكرة صيرورة وتجدد ، فالحياة لا تدمر وإن كان هناك موت. وبسبب الخوف الدائم من المجهول، وبسبب قلقهم من المستقبل ظهرت لديهم معتقدات تبعد الشك عن نفوسهم وتطمئنهم، مثل :

2. زجر الطير:

من الخوف من هذا المجهول، فكان زجر الطير وسيلتهم إلى ذلك، وهو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها ، وسائر أحوالها على الحوادث، واستعلام ما غاب عنهم، فالإنسان الجاهلي في شغف دائم لمعرفة الغيبيات، فكأنهم يستنطقون الطير لتنبئهم بما يريدون معرفته من أمور مجهولة، وهي صورة أسطورية مهيبة للطير توحي للإنسان بربط مصيره به، وبأحد الأمرين القادميْن معه من المجهول الخير أو الشر كما ذكر الدكتور عبد القادر الرباعي، فأصبح زجر الطير وظيفة في تشكيل الحياة اليومية الجاهلية، إذ تعني حركة الطير عندهم الفأل أو الشؤم، فكان الطير يحل لمعرفة المجهول، فارتبط تفكيرهم به بالحياة والموت، وهذا إشارة إلى الضعف البشري، يقول علقمة بن عبدة مستشهداً بهذا المشهد وبهذه الظاهرة: [2]

ومَـنْ تَعـرَّضَ لِلغربَـانِ يَزْجُرُهـا عَلَـى سَـلامَته ، لابُـدَّ مَشْـؤُومُ

وقد كان الغراب واحداً من أبرز رموز الشؤم لديهم، فإذا اقترب الغراب على أحد فلابد أن يصيبه الشؤم؛ في هذه الصورة نجد نوعاً من مواجهة الإنسان الجاهلي -في تلك البيئة -لمصيره أو لموته، ويدل هذا على ضعفه في هذه المواجهة.

3. التمائم:

وهي من المعتقدات التي ارتبطت أيضاً بجلب الخير لصاحبها وإبعاد الشر عنه، فهي عبارة عن علائق تعلق في عنق الإنسان ظناً منهم أنها تجلب الخير، وتزيل ما به من أثر الحسد، وقد قيل بأنها قلادة تنظم في سير أو عوذة تعلق على الإنسان وغيره، فيستأنس بوضعها في عنقه اعتقاداً منه أنها تحفظه وتقيه من الأذى والموت، يقول سلمة بن الخرشب الأنماري: [3]

تُعَـوَّذُ بـالرُّقَى مِـنْ غَيـرِ خَبْـلٍ وتُعْقَـدُ فِـي قَلائِـدها التَّمِـيمُ

وهنا الشاعر يدعو إلى الاسترقاء بالتمائم دون الحاجة إلى الدواء، وهذا يؤكد معتقدهم بأنها هي الشافية ليس في أعمالهم الكبيرة حسب بل في حاجياتهم الصغيرة كرحلة الصيد مثلاً، ومن أشهر تمائم الجاهليين كعب الأرنب.

4. الاعتقاد بالهامة:

وهذه الهامة ترتبط بعالم الأسطورة التي تمثل في حقيقتها الفكر الجاهلي، كما أنها جانب مهم في حياته النفسية والوجدانية في تمثيلها للكون والإنسان، فالهامة طائر يعتقد الجاهليون أنها روح

---

(1) المفضليات، ص321.
(2) المصدر نفسه، ص 67.
(3) المصدر نفسه، ص300.

الميت تتحول إلى طائر يظل هائماً بين الأحياء[1]، إيماناً منهم ببقاء الأرواح حية تتجول بين الناس حين لا يؤخذ بالثأر فتبقى مشردة ضائعة، وتقربهم من هذه المعتقدات، بل تعلقهم بها ما هو إلا لملء الفراغ الروحي والفكري الذي يحيط بهم بعيداً عن العلم والمعرفة الحقة، ولتطمئن قلوبهم.

والهامة أو الصدى هي حيوانات أسطورية، وهي رمز من رموز الظلام والعطش والموت وواسطة بين عالم الموتى وعالم الأحياء، وهي تخبر الميت بما يكون بعده. [2]

وقد نراه يتعلق بأمور لا تنفع ولا تضر، لكنها صورة أسطورية، متعلقة بطبيعة حياتهم وتوجيه لمقتضيات الحياة والفراغ الذي ملأ حياة الجاهلية، وهي ما دعته إلى الوثوق بمثل هذه المعتقدات من زجر الطير أو التمائم، أو الاعتقاد بالهامة .

واتخذ الإيمان بالهامة والصدى ضروبا من الاعتقاد عند الجاهليين، وقد تركزت في باب الثأر فضرب بالهامة مثل،فقيل:هامة اليوم أو غد، وأصبح معتقدا يؤمنون به.

يشير ذو الإصبع العدواني إلى هذا الاعتقاد بقوله: [3]

يَـا عَمْـرُو إلا تَـدَعْ شَـتْمِي وَمَنْقَصـتِي   أَضْـــرِبْكَ حيـــثُ تَقـــولُ الهَامـــةُ إسْـــــــــــــــــــقُونِي

---

(1) المفضليات، ص401.

(2) المصدر نفسه، ص163.

(3)أحمد النعيمي :الأسطورة في الشعر الجاهلي،سينا للنشر،مصر، 1995، ص 198

الخلاصة

نلحظ من خلال البحث في مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية في كتاب المفضليات جملة من الملامح:

اجتهدت الدراسة أن تجلي مظاهر من الحياة الثقافية والاجتماعية للجاهليين من خلال ما انطوت عليه المفضليات من أشعار تعبر عن هذا العصر، ونهجت في ذلك نهج تحليل المضمون رغبة في الوصول العوامل والمحاور الأساسية التي تؤكدها هذه الأشعار، ومن ثم تلمس الظروف والملابسات والدوافع التي كمنت في هذا الشعر، مع التنبيه على أن الشعر الجاهلي تعبير ذاتي عن وقائع خارجية مستقلة عن الوعي وصانعة له في الوقت نفسه. وتستعلن أهمية الالتفات إلى الحقبة الجاهلية أن على فهمنا يتوقف الكثير من المعطيات، إذ يتعذر قيام انثروبولوجيا عربية دون الانطلاق من الحقبة الجاهلية، فهي إلماعات تنكشف فيها الأنسنة وإبداعات الوعي للحقب التالية. إن هذه المظاهر الثقافية والاجتماعية التي استنطقناها من خلال الشعر كالكرم والهجاء والرثاء والثأر برزت فيها عوامل مادية وذاتية تشف عن الوجود الإنساني، والواقع الاجتماعي والتاريخي، واقع متحدات اجتماعية لإنسان لم يوجد بشكل فردي، بل شكلته قيم الجماعة كائنا مندغما في الهم الجمعي، فكانت هذه التجربة الإنسانية العميقة هي الميدان الفسيح الذي يتحرك فيه الشاعر لنمو أفكاره وتنميط سلوكه وعاداته.

لقد أومأت هذه النصوص التي عرضت لها الدراسة إلى معاناة العرب الجاهليين في الصحراء في سنوات القحط والجدب، أو في مجاهل الصحراء الموحشة أو في لهو الشاعر ومجونه وترفه، فما هي إلا معاناة هذا الجاهلي في بيئته القاسية الصعبة، وكأنه يفر من هذه الحياة الواقعية لحياة خيالية يطمح إليها، فيظل مؤرقا ساهرا يفكر في بيئته القاسية وفي كيفية انتصاره على الموت، كما أنها تمثل لديه الانتصار على واقعه المؤلم وتعبيرا عن مخزون المجتمع الجاهلي في آماله وآلامه وأحلامه.

وقد بدا في القصائد التي تناولتها الدراسة في المفضليات أن صوت القبيلة يعلو وتتردد أصداؤه في ثنايا أبياتها بوضوح وتجلٍ، فهي ترسم لنا صورة حية عن الحياة الجاهلية وتبين علاقة الشاعر بتلك الحياة فهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالمشهد الاجتماعي. فهو قائم على مرحلة أبدية في الفيافي يتجلى فيها صراع الإنسان مع الطبيعة باعتباره مجتمعا مهددا يترصده العدم في هول الرمال المترامية وجفافها الرهيب، وهذه المفضليات لا تكشف لنا بعدا اجتماعياحسب، بل بعدا شعوريا ونفسيا للجاهلي الذي كان يعاني من هذه الحياة الصعبة.

المصادر والمراجع:

بيومي، محمد: **علم اجتماع القيم**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د.ط، د.ت)

الجبوري، يحيى: **الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط9، 2001.

الحوفي، أحمد: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط3. (د.ت).

ـــــــــ : **المرأة في الشعر الجاهلي**، دار النهضة، مصر، القاهرة. (د.ت).

خليف، مي يوسف: **القصيدة الجاهلية في المفضليات**، دراسة موضوعية وفنية، مكتبة غريب، القاهرة. ط، 1986.

رزفبر، جون: **فلسفة القيم**، ت: عادل العوا، منشورات عويدات، لبنان، ط1، 2001.

سالم، عبد العزيز: **دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ت، د.ط).
الشعيبي، علي: **ملامح اجتماعية في الشعر الجاهلي والإسلامي**، دار الرفاعي، الرياض، ط1، 1986.
الظبِّي، المفضل بن محمد: **المفضليات**، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، بيروت، لبنان، ط6، (د.ت).
العادلي، فاروق: **علم الاجتماع العام**، دار الشروق، ط1، 1981.
عطية، عاطف: **المجتمع، الدين والتقاليد**، منشورات جروس برس، لبنان، ط1، 1992.
علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد، ط3، 1980.
الغزوي، فهمي، وآخرون: **المدخل إلى علم الاجتماع**، دار الشروق، عمان، ط1، 1992.
كول. ج: **النظرية الاجتماعية**، ت: عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1988.
المبيضين، ماهر: **الأسرة في الشعر الجاهلي**، دراسة موضوعية وفنية، دار البشير، عمان، ط1، 2003.
نعناع، محمد: **الجود والبخل في الشعر الجاهلي**، دار طلاس، دمشق، ط1، 1994.
النعيمي، أحمد: **الأسطورة في الشعر الجاهلي**، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995.
النويهي، محمد: **الشعر الجاهلي، منهج في دارسته وتقويمه**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1977.
يوسف، حسني عبد الجليل: **الشعر والمجتمع في العصر الجاهلي، الرؤية والنموذج الإنساني**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د.ت، د.ط).

الدوريات:

أبو سالم، أنور: **مرثاة الخنساء الإنسانية (الموت، الثأر، الخلود)** مجلة أبحاث اليرموك، م4، ع10، 1986.
مقداد، عبد الله: **مكارم الأخلاق في الشعر الجاهلي**، المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية، مج3، ع4، 2000.